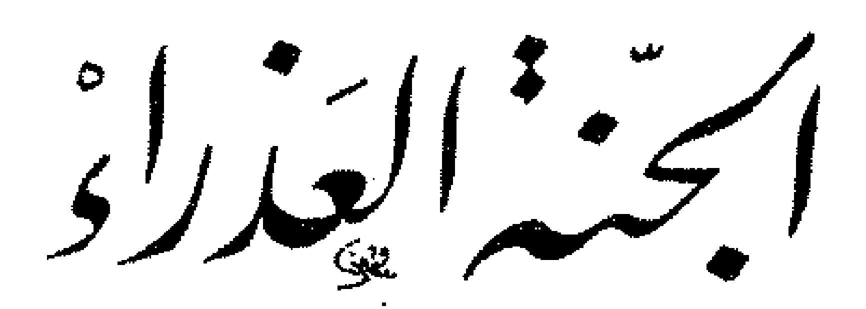

الجنة العذراء
محمد عبد الحليم عبد الله

الجنة العذراء

مطبوعات مكتبة مصر



الجنة العذراء

تأليف

محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

ليلة لاتنسى

كان قمر هذه الليلة لم ينهض بعد من الأفق ، والوقت صيف ، والليل قد جاوز منتصفه بساعة على الأقل ، ودور العزبة المطلة على الحقول قد هجعت بكل ما فيها .. حتى الطيور فى الأماكن والمواشى فى الحظائر كانت قد استسلمت لنعاس لطيف مع نسيم شهر يونية الفاتر .

وهناك دار على الطرف الشرقى للمبانى نامت منذ وقت طويل .. ربما بعد أذان العشاء بساعة ، فيها غلام فى الثانية عشرة من العمر وأمه السمراء التى لم تتجاوز الثلاثين ، وليس معهما بعد ذلك فى الدار إنسان ولا حيوان .. إذا استثنيا الدواجن .

وكان « رضا » فى هذه الليلة ينظر إلى أمه بإعجاب الابن كأنما رآها للمرة الأولى . فبعد أن تناولا عشاءهما استلقى هو على الحصير الذى فرش فى الساحة فرارا من الحر وأخذ يستمع إلى حديث أمه الهامس وعيناه تحملقان فى النجوم .. فى سماء صافية وليل ساكن فى

الوقت الذى جلست فيه الأم فى جلباب من « الشيت » الأبيض . قديم قطع كماه بعد أن بليا فظهرت ذراعاها البضتان فى هيئة تدل على الصحة ، ورمت بمنديل رأسها ثم حلت شعرها وقربت طشتا وأخذت فى غسل شعرها وتمشيطه وهى تتحدث إلى ابنها عن تاريخ حياة كان من الممكن ألا يقع .

كان بالنسبة إليهما مجازفة مشروعة .. وقصة كأن أبطالها ملائكة وشياطين .

وكان معظمها منصبا على أبيه ..

وكانت تتكلم عنه بحنان ، كان « رضا » يتعجب لوجوده ، ثم يسأل نفسه فى تجاهل يكاد يضحك منه :

ـ هل أبى موجود ؟

ويجىء الجواب من فم أمه المطرقة نحو وعاء ومن خلال صرير المشط الذى يتخلل شعرها المجعد ونور المصباح المعلق فى ركن من الساحة يرسم ظلالا على شعرها ورقبتها وزندها العارى . يجىء إليه صوتها الوانى دائما والهامس باستمرار يقول له :

ـ إنه فى صحة جيدة .. أحسن من السنة الماضية . لكن .. هل يفكر فينا يا « رضا » ؟

وتتأوه وتحس حرارة أنفاسها وهى تلامس يدها التى تمشط الشعر . وينقلب « رضا » على الوسادة ويدير ظهره لأمه لأنه بدأ يحس خدر النوم ، ويسترجع الساعات الأخيرة من النهار.. تلك التى قضاها فى

اللعب مع « حسن » وأخته « بدور » . ويتذكر نظرة البنية الفاترة بنت العاشرة وهى تقرصه من خده فى مداعبة قبل أن يفترقا .. ثم تسود فترة صمت يسمع بعدها وعيناه مسبلتان ـ مع قرقرة دجاجة ـ أغنية حزينة تدندن بها الأم لنفسها .. ثم همس نسمة فى بعض أعواد حطب ينتهى بعدها كل شىء فى عالم المحسوس بالنسبة للغلام .. فينام .

***

خيل إليه أنه غفا دقائق لاتزيد عن خمس .. خمس فقط .. حين استيقظ مأخوذا على صراخ . لم يكن يدرى أن الساعة قد جاوزت الواحدة صباحا وأنه نام أربع ساعات . وجلس على الحصيرة يفرك عينيه ويتلفت فى الظلام الذى تضيئه النجوم فى ساحة الدار المكشوفة فيرى المصباح منطفئا وأمه وقد أمسكت بتلابيب رجل وهى تصرخ ..

ويبقى الغلام مشدوها .. وصمم على أن يقوم فيضرب الرجل بما تقع عليه يده ، لكنه عاد فخاف أن يكون أباه !

أبوه ؟؟ لكن لماذا تصرخ أمه منه ؟ ولماذا يجىء فى الليل على هذه الصورة وهولم يره مرة فى النهار.

كان كل شىء مزعجا غامضا ومخيفا ، كان بالنسبة إلى أدراك غلام اغتصب من نومه شيئا لا يمكن أن يفهم . عجز عنه عقله . لكن قلبه أدرك أن أمه فى خطر شديد حين سمع دقات عالية على باب الدار لرجال ونساء يهيبون بمن فى الداخل أن يفتحوا .

وقام « رضا » ولكم الرجل الذى يصارع أمه بقبضة يده العجفاء

فرفسه الرجل من الخلف فسقط على الأرض فى الوقت الذى كاد الناس فى الخارج يخلعون فيه باب الدار. فأفاق الغلام على صوت أمه وهى تقول له :

ـ افتح يا « رضا » .. افتح يا « رضا » .

وحين صر الباب على عقبة الخشبى اندفع الناس وفى أيديهم عصى ومصابيح .

وكانت المرأة السمراء ذات الذراعين العاريتين والشعر المغسول قبلة أنظار الرجال والنساء جميعا . كانت العيون تخوض فيها خوضا فى الوقت الذى يسألون فيه عن الحكاية .

وأية حكاية ؟

شاب لا يغطى جسمه إلاجلباب منفرد فى دار امرأة بعيدة عن زوجها ينام معها غلام لاتوقظه الزلازل .. هذه هى الحكاية ؟ وتساءل الأبرياء بينهم وبين نفسهم ! لكن .. مامصلحتها فى إثارة هذه الفضيحة ؟ لأنه ليس من المعقول أن يكون هذا الشاب سارقا . ثم ماذا تملك هى حتى يسرقه ؟

ولاذوا بالصمت بعد هذا السؤال . وكانت المرأة فى قرارة نفسها تود ـ لو استطاعت ـ أن تنهى كل شىء فى هدوء . فقد أحست بقدم تهبط السلم فى عجلة وغيرحذر. تسلق إحدى النخيل القريبة من الجدار ثم ألقى بنفسه على السطح وكان أول شىء فعله أن اتجه نحو المصباح فأطفأه . وكان وجه المرأة فى النور وهى نائمة . كانت مرتاحة على



وكاد من بالخارج يخلعون الباب

ظهرها فى أمان من لايفكر فى المخاطر .. لكن النفخ من خلال الزجاجة أحدث حفيفا أيقظها .

ودلها قلبهاعلى أن المراد ليس سرقة ولاهتك عرض .. ولكن المراد .. فضيحة ! فتأهبت للصراع .

وفى طرفة عين عرفت الشاب حين ناداها باسمها . لم يكن فى صوته دلالة الرغبة ولا ملاينة الذى يريد .. واجتاحت قلبها أفكار خطيرة فى سبيل أن ينتهى الموقف فى صمت لكن رعشة حادة مشت فى أوصالها . فأنشبت أظفارها فى كتفيه وسألته عن سبب إقدامه على هذا العمل .

كان صوتها خافتا مرتعشا ولم تكن قد اتخذت قرارا بعد ، لكنها سمعت طرقات على الباب جاءت سريعا قبل الأوان ، فألهمتهما الغريزة أن تستغيث ، فصرخت لأن هذا كان هو الحل الوحيد .

كان النور الذى أرسلته المصابيح الريفية فى أيدى الرجال والنساء يغمر الدار ، والأبرياء ومن بينهم « رضا » يسألون أنفسهم عن الحكمة فى إثارة هذا كله وينحون باللائمة على المرأة ، لكن .. مالبث كل شىء أن انكشف حين دخل « حمودة » يشق الجمع فى صولة وثورة وفى يده عود من الخيزران .

وسع الناس له الطريق ، إنه الابن الأكبر للحاج « ماضى » صاحب الأرض وفضلا على أنه كذلك فهو صاحب الأمر والنهى فى هذه الرقعة التى تبلغ مائتى فدان .

كان طويلا يتثنى فى مشيته كأن به عرجا خفيفا وإذا غضب خيل إليه أن وجهه تورم ، ولم يكن على رأسه شيء كأنه ناهض من النوم لكن قصر المدة التى تتابعت فيها الحوادث دلت على أنه كان فى مكان قريب من الدار.

واتجه « حمودة » نحو المرأة والرجل وطوح بالعود فى الهواء فوسع له الجميع وكانت أنوار المصابيح فى الناحية الخلفية من الدار « والخاطئة والقذر » على حد تعبيره فى نصف ظلام ينهال عليهما ضربا وهما يتأوهان وبقية الفلاحين يستحلفونه أن يعفو عنهما !

لم يكن « رضا » يشهد بقية الحوادث وهو بين الناس فى ساحة الدار . كان يرتجف بشكل لايوصف ذكره ليالى الملاريا .. فقط كان ينقصه العرق لكنه ذرف دموعا .

لجأ إلى أقرب حجرة من الموقعة ، دفع بابها ودخل ، ولبد فى الظلام على مقربة من فتحة الباب يرقب مايجرى .

ـ « إن الله حليم ستار .. إن الله حليم ستار » .

ووصلت إلى ذهنه هذه العبارة ، من كل فم ، كانت تفعل فى قلبه ماتفعل الأحزان التى لم يكن جربها بعد ، فشعر كأنه يشيع جنازة أمه، وكأن كل هؤلاء بانتظار جثمانها العزيز.

وسمع « حمودة » يسأل عنه :

ـ أين الولد « رضا » ؟

لم يرد هو ، وزاد التصاقا بالجدار خلفه وشعر بإحساس الهارب

من العدالة فقد كان العود فى يد أخيه .. أخيه « حمودة » .. وهو متأهب للعمل .

وكأنما أنساه الغضب أن يبحث عن أخيه الصغير ، وتلفت الناس فى إهمال من يؤدى مهمة غير محبوبة .. ولم يذكر اسم « رضا » مرة أخرى .

وبدأت الأصوات تخفت والحدة فى الفتور فأخذ شيء من الطمأنينة يزحف إلى قلبه الصغير ، وكان يسأل نفسه : ماذا سيصنع أبوه عندما يعلم بماحدث .

وعندما كان مشغولا بهذه القضية كانت أنوار المصابيح فى أيدى النسوة تتراجع فى أعقاب الرجال الذين يغادرون الدار .

وبعد أن انسحبت آخر امرأة بمصباحها أطبق الظلام وأغلقت المرأة باب الدار من جديد فعاد يصرصر .

وتذكرت ابنها وهى تعود إلى الداخل فنادت عليه بصوتها الباكى:

ـ رضا .. رضا ..

وبرز من فتحة الباب مثل الفأر.

ـ هات الكبريت .. الكبريت يا « رضا » ..

وعبثا حاول أن يعرف مكانه فأعفته من البحث . لم يكونا فى حاجة إلى النور فالظلام خير لهما .. وعادا إلى حيث كانا يرقدان على الحصير ، لم يتغير شيء ما ، وغاية ماحدث أن رقدت هى بينه وبين الحائط كأنما كانت تطلب حمايته ، ولته ظهرها ، وظلت تبكى

وهوينصت وعيناه مثبتتان على شعرها الأسود .. حتى غاب مرة أخرى عن عالم المحسوس .. حتى الصباح ..

كانت الأم تعلم أن الحوادث لم تنته بعد وأن اليوم التالى سيحدد مصيرها فى هذه الأرض .

لذلك لم تخرج من دارها ولم تفتح الباب لأحد ، وفى زوال النهار كانت خائفة .. وعند ارتفاع الضحا تحول الخوف إلى قلق غامض .. وعند الظهرتحول القلق إلى عدم مبالاة ، ليس نوعا من الاستهتار لكنه نوع من الرضا بالمصير ، رضا المشنوق الذى لايملك إلا مايساق إليه .

وكان الرأى العام فى العزبة همسات أو إشارات يفهم منها أن « حمودة » دبر هذا لزوجة أبيه ، وحتى الشاب الذى كان أشبه بالحيوان وهو يتلقى ضربات « حمودة » ليلة الحادث معروف أنه من أتباعه ، لكن جميع الأفواه التى تعلق على ماحدث كلها من هذه الأرض . ومجرد الأسى لشخص لايعرقل زحف المصائب إليه ..

الثيران تدور السواقى ، والدواب تحمل السماد ، والفئوس تشق الأرض ، وبعض الفلاحين يغنى ..

لم يتغير شيء فى الدنيا على الرغم من أن الأم خيالها يرسم لها وهى تطعم الدجاج أن الثور الذى يحمل الأرض عاجز عن حملها منذ اليوم ..

أحست وهى تنهض أن قواه مثل قواها قد خارت وأنه على وشك أن يثور ويرمى بها .. إلى أين ؟

وأغمضت عينيها لأنها شعرت بدوار ..

ولم تلبث أن سمعت طرقة على الباب فخفق قلبها . لابد أن يحدث شيء عندما يعلم زوجها .. أبو حمودة وأبو « رضا » .. بالتساوى .

لكن الطارق كان امرأة تسأل عن دجاجة ضالة !! .. فأحست أن ساعة التنفيذ لم تحن بعد وركبها من جديد شعور بعدم المبالاة .. لكن يخالطه الحزن..

وتحت إحدى الأشجار جلس ثلاثة من الصبيان يلعبون .. هم : « رضا » و « حسن » و« بدور » .

وكان « رضا » طوال هذا الصباح يشعر أن شيئا قد ضاع منه ، وكان ينظر إلى معالم وطنه بإحساس الغريب .. وصديقه « حسن » ـ الماهر فى صنع كل ما يسلى وما يجلب غيرة الصبيان وإعجابهم ـ مشغول فى عمل طنبور من أطراف أعواد الذرة . يستعمل الشوك بدل المسامير وقد سبق أن صنعه مرة ورفع به الماء فتناقل الصبيان هذه الأعجوبة ، وكان « رضا » و « بدور » يساعدانه كصبيان النجار .. وهو مكب بوجهه الشديد السمرة السعيد يعمل ويثرثر . و « رضا » يسأل نفسه من خلال أحزانه عما إذا كان صديقه يعلم ما جرى فى دارهم أمس ؟ إنه لم يحم حول الموضوع بكلمة واحدة .

كان الاثنان مشغولين فى إتمام المعجزة الجديدة .. طنبور أكبر من الأول .. سيرفعون به الماء من بئر يحفرونها ويسقون حقلا زرعوه

بالأغصان ..

أما « بدور » فقد كانت تدور مثل النحلة لتجمع الشوك . مهمة طريفة بالنسبة للبنية الجميلة .. ذات الضفائر التى يلمع فى آخرها شريط من الحرير الأحمر يتمرجح على ظهرها وهى تجرى .

كانت تجمع الشوك والصديقان منهمكان فى العمل ، وفجأة صرخت البنية فانتفض لصرختها الغلامان . ظنا أن ثعبانا هاجمها من خميلة الغاب النامية على الترعة ، لكنهما عرفا أن شوكة دخلت فى قدمها .

وكانت على مقربة منهما لكن الحادث البسيط لم يستطع أن يخرج شقيقها من هوايته . فخف إليها « رضا » ..

كانت جالسة على الأرض وقد رفعت إحدى ساقيها قليلا ، وانطوت تنظر مكان الشوكة من القدم . فأتاح هذا لثوبها أن يتزحزح وأن يظهرمن جسمها أماكن لاتراها الشمس . فأحس «رضا » بأنه يحبها .. مجرد إحساس عابر كعصفور شقشق قبل الربيع . ومالبث أن جلس على مقربة منها ووضع قدمهاعلى فخذه وأخذ ينبش بأظافره الطويلة ليخرج بقية الشوكة التى غابت فى القدم .. وكانت هى تضحك وتبكى وتتأوة بطريقة لاتدرك معناها ، انتهى كل شىء بسلام ووضع « رضا » رأس الشوكة فى كفه ليعرضها عليها فى انتصار .

كانت الصبية تقرقر بالضحك وفى عينيها بقايا دموع .

وكان هو يتأمل ملامحها وقد تعاقبت عليها انفعالات متطرفة

رعناء ، وفجأة غاب المرح عن نظرتها وحملقت فى غضب وعرف منه « رضا » أن شخصا وراءه ، فنظر فإذا بغلام يبرز من وراء شجرة . كانت « بدور » تكرهه لأنه يعترض طريقها باستمرار .

وظل الصمت عليها وعلى « رضا » فى الوقت الذى تقدم منها الغلام وهو يغالب ضحكه .ظلا جالسين كما كانا وظل هو واقفا يقهقه.

ولم يتكلم أحد الثلاثة حتى بدا شيء من السخرية فى ضحكات الغلام . وهمت « بدور » أن ترميه بشيء لكنه نادى على « رضا » قائلا له :

ـ تعال .. كلمة واحدة ..

انتحى به مكانها وهمس فى أذنه بكلمات أفاق بعدها « حسن » و « بدور » على شجار بين الغلامين كانت كلمات « رضا » تتردد خلاله بصوت ناقم جريح :

ـ عارف معنى ما تقول ياسافل ؟.. عارف معنى ما تقول ياسافل؟

وخف الشقيقان لينضما إلى « رضا » فى المعركة فولى الغلام هاربا . وجلس « رضا » على التراب ينتحب وزم « حسن » شفتيه فى إصرار على الانتقام فقد تأكد أن أخته قد هوجمت ولم يكن الشقيقان يعرفان أن ماقاله الغلام لـ « رضا » إن هو إلا صورة لبعض ماقيل فى العزبة :

ـ « مين كان بيطلع لامك الشوكة من رجلها بعد نص الليل » ؟ وبعدها .. ضحك الأول ، ولم يلبث الثانى أن بكى ؟.

يا أبى !

وفى نفس هذا الصباح كان الحاج « ماضى » يعانى إحدى نوبات الصرع . كان فى شبه غيبوبة على سرير عتيق فى حجرته الواسعة من بيته الكبير .. ودخل زوجان من الحمام من إحدى النوافذ ووقفا يبرجمان فوق عوارض السرير ..

وفى الجو رائحة بطاطس عطنة وأحد الثيران يخور على مقربة فى الحقول .

ومن خلال النافذة بدت خصوبة الأرض وهى تتدرج شيئا فشيئا نحو الهبوط حتى تصير رملا ثم .. كثبانا .

وهو الآن قد جاوز الستين . راقد فى جلباب ليس تحته شىء ، لأنه شديد الإحساس بالحر . ومن خلال شباك السرير الحديدى يمكن أن ترى فى كعبيه آثار شقوق قديمة وفى بقية القدمين بياض مثل بياض الجير .

ومن فتحة الجلباب عند الصدر يبدو جسمه الخفيف الشعر الأحمر البشرة ، كأن به آثار نتف أو سلق . وعند الثديين بقعتان من بهاق لم تأخذ واحدة منهما شكلا هندسيا منتظما .

وكان دقيق الشفتين خفيف شعر الرأس . وجهه المعروق الأحمر كأن به .. أيضا آثار نتف أو سقط عليه ماء ساخن .

وطالما عانى ابنه « رضا » الأسمر من هذه الظاهرة . كان يود لو أن وجه أبيه كان في لون آخر .. فقد كان الصبيان في المدرسة إذا ما تشاجروا معه يقولون له : ياابن الإنجليزى ..

ولم يكن أحد يدخل على الحاج « ماضى » غرفته وهو مريض إلا قليلا .. عندما يعن لزوجته « أم حمودة » أن تراه .. مندفعة بحب الاستطلاع لا الرعاية ولا الحب القلبى ..

فلم تكن تحبه ..

وقد كانا نصفين غير منسجمين . وقد صدمت فيه منذ الليلة الأولى ..

ليلة نامت عروسا جريحة كما تقضى تقاليد الريف . بعد أن ثبت بواسطة يد الزوج أن العروس عذراء فانطلقت الزغاريد .

ولما سكن الليل وانفض الناس لم يطل بهما السمر ونام « ماضى » يشخر مثل الذبيحة وقد تدلى فكه وبدت أسنانه وتجويف فمه .. وقامت « منيرة » وجلست بجواره .. وكحت وتنحنحت لعله يستيقظ ، ثم أخذت تتأمل الملامح العابسة تحت نور المصباح وكأنها شىء لا يخصها .

كان على أسنانه خضرة وصفرة وعلى زاويتى فمه زبد خفيف . وسألت نفسها : كيف سيقبلها هذا الفم ؟!

ثم انطوت ونامت ..

وبعد يومين تركها وذهب إلى سوق الماشية ، فقد كان تاجرا وسمسارا فضلا على أنه فلاح يملك بضعة أفدنة غير خصبة فى القطعة التى تقع فيها عزبته الآن ، وعاد من السوق ومعه أقتان من العجوة فى المنديل وأمرها وقت العشاء أن تصنعها بالبيض والسمن .

ثم سهر يكلمها عن أثمان الماشية وحوادث السوق . ثم قام إلى المصباح فأطفأه .. وناداها ..

واستغرقت فى النوم بعد ذلك فترة قامت بعدها على دردبة الشخير .. وكان هذا يعذبها لكنها لا تملك حيلة .

وأنجبت بنتا قبل « حمودة » كانت صورة صغيرة من أمها البيضاء .. أما أبوها فقد كان يعرض عن القلة السليمة ليشرب من التى كسرت عنقها ، وينفى الملعقة بأطراف أصابعه ليغرس يده فى الطعام ويتجشأ وهو يأكل ويملأ شدقيه ويتكلم ، وإذا مااستلقى إلى جوار زوجته فاحت رائحة جسمه .

لكنه فوق كل ذلك كان فيه حذرالفلاح . وتطور الحذر فصار عمقا وحرصا لايوصف .. فلم تستطع زوجته يوما ما أن تعلم حقيقة ماله ولادخيلة نفسه . كان قادرا على أن يلبس قناعا حزينا وهو فى أشد حالات الفرح وقادرا على أن يفعل العكس .. مولعا بشراء الفضلات من كل شيء . والبياعون فى سوق القرية ينتظرون مقدمه آخر النهار ليحمل البائر . ويدخل على زوجته وهو يئن كأنما حمل فوق مايطيق ..

ولم تستطع « منيرة » إلا أن تضمر له الكره ، وعندما كان يعود من بعض الأسواق وقد فاحت منه رائحة الصوف والعرق كانت تحس بالغثيان عندما يلامسها .

وبعد مرور عشرين عاما على زواجهما منحها الزمن قوة جديدة كفلت لها الدفاع عن نفسها كإنسان برغبة مستقلة . فانفجرت فيه ذات ليلة وهجرت فراشه .

على أنه لم يأسف لها كثيرا فقد أضيف إلى ترفعها عليه شيء آخر .. هو أن نوبات الصرع كانت تعوده فى فترات متقاربة فى ذلك الحين .. وقد أخذته صباح اليوم نوبة شديدة ، بعد أن دخل عليه ابنه « حمودة » قبل الشروق وأنبأه نبأ خيانة « بهية » زوجته السمراء .. أم « رضا » ..

لم يكد قلبه يصدق .. لكن بعض الوقائع ليس مجرد غبار ينفض عن الثوب وينتهى الأمر.

ونظر الزوج إلى صدره من فتحة الجلباب فرأى بقعتى البهاق ، فأحس كأنهما على شفتى زوجته وخديها وتحت عينيها .

لم يعد بحاجة إلى أن يراها بعد أن لحقها هذا التشويه .. وفكر .. وفرض أن هذا الذى حدث لها من تدبير ابنه الكبير فقذف به الفرض إلى فرض آخر .. إلى أنه أراد أن ينتقم منها لأنها دفعته عن رغبة .. أو حققت له رغبة ثم منعتها عنه . ورأى الموقف على كل حال شيئا شائكا ..

لكنه عاد فتذكر كيف أحبها . منذ خمسة عشرعاما أيام كان فى فقر وصفاء ، وكان يذهب مع أبيها ماشيين إلى السوق على بعد خمسة عشر كيلو مترا ، والنور لم يظهر بعد ، والحكاية التى يسليان بها السفر .

وكان أبوها رجلا فقيرا جدا ، رقيق القلب ، حلو الحديث ، من قرية تبعد عن الحاج « ماضى » بثلاثة كيلو مترات .

لم ينس له الحاج « ماضى » جميلا صنعه ذات مرة وهما فى طريقهما إلى السوق فى يوم شتاء . ولأمر ما ركب كل منهما حمارا وكان والد « بهية » سابقا بركوبته يحكى لصاحبه إحدى مغامراته فى عهد الصبا وهو يضحك ، وفجأة سمع شيئا يسقط فالتفت خلفه فإذا بزميله الذى ظل يقاوم بوادر الصرع يسقط من فوق حماره ويتدحرج نحو قناة على جانب الطريق .. فينغمس فيها .

ولما ارتفعت الشمس وأفاق الحاج « ماضى » وحملق رأى منظرا أسر قلبه ، فقد كانت الملابس المبلولة فوق جسم صديقه ، أما ملابسه هوفقد كانت عليه بعد أن صنع له كنا من حطب الذرة أتى به من حقل قريب .. ثم خلع صديقه الملابس قطعة قطعة وجففها على النار .

وكسبا فى السوق ، واشتريا وباعا ، وذهب الحاج « ماضى » إلى دار صديقه يسهر عنده ذات ليلة وجلست « بهية » تصنع الشاى.. سمراء ممتلئة فقيرة سليمة تتعانق على ظهرها بين حين وحين ضفيرتان من شعر كثيف .

وشعر « ماضى » بأنه يطلب أنيسا ، وتذكر البيضاء المترفعة وحملق فى السمراء التى جاوزت العشرين ، والثانية من بنات بينهم ولد واحد هجر القرية .

وأحس ماضى بالقرش فى جيبه والحب فى قلبه ، ثم شعر بالقدرة إزاء بهية وأبيها .

وقبيل انتهاء السهرة قال الحاج « ماضى » لصديقه :

ـ ما رأيك .. عندي عريس للبنت « بهية » .

فرد الأب ضاحكا فى فكاهته المعهودة :

ـ إيدى على كتفك .. ملكنى رقبة ابن الكلب قبل ما اموت يا « ماضى »

فضحك ماضى وأمسك بكفى صديقه برفق ونفسه مقطوع من القهقهة ثم رفعهما حتى طوق بهما عنق نفسه . وحملق الأب وصمت ، ثم ضحك وصفق بعد أن رفع يديه عن عنق صديقه .وبذلك تمت الخطبة .

***

وجلس « ماضى » فى فراشه عندما وصلت أفكاره هذا الحد . وزوج الحمام على عارضة السرير لايزال يبرجم ، فألقى عليهما نظرة كسيرة . ثم تسلل بصره من خلال النافذة بعد أن ملأ أنفه عطن البطاطس فرأى العزبة من خلال قضبان الحديد .

كانت أسوار التين الشوكى لا تزال قائمة تحدد تلك البقعة الخضراء .

وعندما وقع بصره على التين بكى من عينيه وأنفه ، ومسح دموعه بجلبابه .

ودخلت عليه خادمة تحمل صينية صفراء عليها خضار وقطعة من لحم لم تنضج من البارحة ، وأخذ « ماضى » يمضغ فى تهالك وهو يحس بإعياء كامل . ويذكر الليلة السعيدة التى دخل بها عروسا على « بهية » فى الخفاء ، فقد كان الاتفاق أن يكتم الأمر ، وساعد على هذا بعد دار « بهية ».

وبنى « ماضى » حجرة جديدة فى دارصديقه على حسابه دخل بها على العروس . كانت ليالى جميلة بالنسبة إليه .. شعر فيها كأنه مع نفسه ، أما فى حجرة منيرة فقد كان يشعر كأن ناسا يراقبونه .

غير أنه كان يتمنى شيئا .. هو .. أن تكون « بهية » عقيما .. إنه لا يريد ذرية بعد ذلك . إن « حمودة » صورة جسمية منه وصورة نفسية من أمه . وكفاه عذابا ، إنه يريد الحنان والمتعة ، وهو نظير هذا يتنازل لزوجته وابنه عن كل سلطانه ، فظل يبتهل إلى الله أن تكون « بهية » عقيما .

لكنها بعد عام حملت منه ، ولما زفت إليه البشرى فى طيبة احمر وجهه واسودت الدنيا فى عينيه ، وكان يأمرها أن تحمل الأشياء الثقيلة بتجاهل عسى أن يسقط الجنين .. لكن .. لم يسقط جنين كتب له على الأرض قوت حتى يموت .

***

وفـى نفـس الوقـت الذى كـان الأب فيه يمضـغ لحم الجمـل كـان « رضا » وأمه لايزالان بانتظار أمر حاسم ، وقررت الأم أن تذهب إلى زوجها ، أن تنتقل من دارها المستقلة فى الطرف الشرقى من العزبة إلى حيث يقيم وأن تلقاه وجها لوجه . لم تكن تعرف ماذا تريد ، لكنها كانت تجرى فى كل اتجاه .. بجسمها فى الدار وأفكارها فى الخارج كما يجرى المطاردون تماما .

وكان الابن زائغ العينين عندما رأى أمه تجمع الملابس فى سبت كبير وهى تبكى ، وسألها :

ـ مسافرين ياامة ؟

ونظرت إليه . وهزت رأسها علامة الإيجاب . وحالا .. عادت فهزتها علامة النفى .وطفرت دموعها وأخرجت الملابس مرة أخرى وأعادتها إلى حيث كانت وأخذت تبكى بصوت مسموع .

كان « رضا » يفكر فيما حدث فى الليلة التى لا تنسى ، ويتذكر التأوهات التى كانت تطلقها « بدور » وهو يخرج بها الشوكة . والكلمة المريبة التى أطلقها فى وجهه الغلام .. والضحكة المريضة . وحملق فى وجه أمه الأسمر المستدير حيث خط الدمع يبرق على خدها ، وعلى شفتها العليا بوادر زغب فضحه نور الشمس . وفجأة طرق الباب ..

وحبست الأم أنفاسها ودمعها ، وخف « رضا » ليفتح ، ثم ارتفع صوته عاليا مهتما كمن يعلن قدوم موكب :

ـ عم الحاج « محمود » يا امة .. عم الحاج « محمود » .

وبلعت ريقها ، وخيل إليها أن نقطة من النور طاقت بظلام الموقف فجرت إليه تلملم أذيالها وقبلت يد الرجل الذى اعتبرته رسول سلام . وحين حملقت فى عينيه قرأت فيهما الأسى ، وقال الرجل وهوينكث الأرض بعصاه.

ـ الله يرحم والدك يا « بهية » .. هو السبب فى كل ماحصل .

فدقت صدرها وقالت ، وقد شرقت بدمعها :

ـ إذا كنت أنا بنت أبى فلماذا لايكون « رضا » ابن الحاج « ماضى » كذلك ، ماذنب هذا ياحاج « محمود » ؟

وأشارت إلى الفتى المسند على الجدار برأسه كأنه يخاف أن يسقط .

واستطردت فى ابتهال :

ـ لكن .. هل صدقت ما قالوه عنى ؟

وأمسكته من كمه وجعلت تستحلفه وتبكى وهو صامت ، حتى رفع رأسه إلى السماء ودعا الله بمالم تسمعه ثم قال لها :

ـ لا .. ظلم .. لا .. كله ظلم يا « بهية » .

وقدم لها بضعة جنيهات بعث بها زوجها ، وحمل إليها نبأ ضرورة الرحيل ، وسألته بوله :

ـ و « رضا » ؟

فأجاب باستسلام :

ـ ورضا .. حتى يروق الجو .

ولما أغلق الباب خلف « السفير » كان كل شىء بالنسبة للأم .. لايساوى شيئا .. كانت تحت تأثيرالمخدر الذى تقدمه الطبيعة قبيل النكبات . ومن فوق سطوح الدار لاح لها برج حمام فى قرية قريبة كانت تعين به موقع دار أبيها كلما صعدت لنشر الغسيل فتذكر أترابها اللاتى لعبن معها . ووقع بصرها على البرج فترحمت على الراحلين أمها وأبيها ، وتذكرت ابنها الواقف تحت فى ساحة الدار وهو يجمع كتب السنة الماضية والكور التى صنعها من الجوارب ليقدمها هدية إلى صديقه « حسن » قبل السفر ، فلم يعد هناك صوت واحد يستطيع أن يحمى حقها . حتى صوت الحاج « محمود » وبدت فى عينيه انكسارة الخوف من همجية « حمودة » الذى يحمل جسم حصان ووجه إنجليزى .

واتجهت أسراب الحمام نحو قرية « بهية » وهى لاتزال واقفة على السطح . كانت كأنها تطير بقلوبها قبل أجنحتها نحو البرج . وتابعتها عينا « بهية » حتى غابت فنزلت هى إلى تحت .

***

كانت الشمس تنهض من وراء النخيل والأشجار فى الصباح الثالث عندما كانت الأم منطوية على كرسى القطار تبكى فى صمت . أما « رضا » فقد كان ينظر من النافذة . رأى برج حمام فى قرية أمه ، وبرج حمام فى قرية أبيه .. جنب دار أبيه الكبيرة . كان هو الآخر تحت



أحس كأنه يريد أن يكلم أبراج الحمام لأنه لم يجد من يودعه

تأثير المخدر الذى يصاحب النكبات وبرق الندى على أوراق القطن والدمع على أهداب الغلام . وبحث عن ريقه كأنه يريد أن يتكلم ، لكنه لم يجد من يقول شيئا .. كانت الأم مشغولة بدموعها . وهو وحده . أحس كأنه يريد أن يودع أبراج الحمام .. أن يكلمها مادام لم يجد أحدا يقول له :

ـ ح توحشنى !

وعلى رصيف المحطة الريفية بدا فجأة إنسانان هما « حسن » و« بدور » .

وضحك « رضا » وبكي في وقت واحد ، وناول كلا منهما يدا يسلم من النافذة ..

عندئذ وجد الفتى من يقول له كلمة يبدو أنها ضرورية لكل مسافر:

ـ ح توحشنى !

الغريبان

كانت الأم تعلم أن شقيقها « بركات » هو صاحب قهوة « بركات » في أحد أحياء مصر القديمة .

كانت صورته تتخايل خلال أهدابها ومخاوفها والترام يشق بها شوارع العاصمة ، أما الابن فقد أنسته جدة المناظر ماحدث في العزبة منذ وقت قصير. أحس كأن زمنا طويلا قد مضى ، غير أنه كان يفيق على مخاوف أمه وهي تسأل من بجوارها عما إذا كانوا قد وصلوا إلى الحي ! ثم نزلت تحمل على رأسها وابنها يحمل على كتفه ، وأمامهما حمال كذلك يرشدهما الطريق .

ووصلا إلى ميدان صغير على رأس الحارة تحده مع الدكاكين القليلة أوقاف من الملتين ألقى جمودها وسكونها ـ مع حركة الدكاكين ـ على الميدان معنيين متناقضين .. الحياة والموت .

وخفق قلب « رضا » عندما التقطت عينه لافتة طويلة تحمل كلمات قهوة « بركات » شعر كأنه وصل إلى المرفأ وهتف بأمه بلهجة ريفية .

ـ قهوة خالي ياأمة .. قهوة خالي .

فتركزت عين الأم والحمال والغلام على وجه رجل يقف فى الباب . ولمحوا الزبائن القلائل المنتشرين على الكراسى فى ذلك الوقت من الظهيرة .

وهتف « رضا » كأنما أراد أن يؤكد لنفسه سلامة الوصول :

ـ خال .. ياخال .

فانتبه رجل بوجه أسمر كأنه خلاسى يبدو أنه فى الخمسين وإن كان فى الأربعين فقط وحملق بعينين مدمنتين فى القافلة التى تحمل المتاع والمتاعب وفغر فمه ثم صفق فى دهشة وقهقه ثم همس :

ـ بهية ؟!. صحيح ؟ .. أختى ؟!.. تعالوا ..

لكن الحنان الذى فاض من نيراته جعل « عزوز » صبيه ابن الخامسة عشرة يعجب كيف يكون هذا القاسى فى مثل هذه الرقة .

ثم تحركت القافلة نحو بيت فى إحدى الحارات وتركهم « بركات » يصعدون السلم الضيق فى تلمس وحذر وسبقهم ليعلن الخبر إلى زوجته فى الشقة .

وبعد أن استقر بهم المكان فى حجرة صغيرة والتف حولهم البنات والبنون كانت « بهية » تفكر فيما يجب أن تقول لأخيها و « رضا » يحملق فى كل شيء، وراعه أول الأمرتلك الملابس الضيقة فوق الصدر الأبيض المكشوف والجسم السمين الملفوف لامرأة خاله .

ولم تكن « بهية » قد رأت أخاها منذ سنوات لأن نزوله إلى الريف بعد رحيله منه كان أمرا شاقا بالنسبة إليه .

ومشت حياته ارتجالا منذ شبابه الأول مثل أى حياة لأى شاب فى أى قرية ، فبينما كان أبوه رجلا متصوفا يحب الله والرزق الحلال كان « بركات » شابا لا يعرف ماذا يصلح له ؟ فهو كعامل زراعى رقيق الصحة ، وكتلميذ رقيق الحال ، ولايملك مهارة أبيه فى الاحتيال على الرزق والقناعة بالقليل ويطلب الكثير بحكم سنه ونزواته مع أنه لايستطيع أن يكسب شيئا .

ونظرت « بهية » إليه بعد أن فرغوا من الغداء الذى قدمته زوجته فى صمت ، وحملقت أخته فيه وهويشعل سيجارة فرأته كأنه يأكلها ، فتذكرت المعركة التى دارت بينه وبين أبيه بسبب ذلك وتذكرت أيضا أنه خرج من القرية بسبب ذلك ، فقد كان « بركات » كلما مر بين الناس سمع ضحكات وهمسا يردد مثلا يقول : « إن سرقت اسرق جمل ، وإن عشقت اعشق قمر ».

حتى « بهية » طالما قالتها له خصوصا يوم تشاجر معها ليأخذ بيض الدجاج ليشترى سجاير ، ولطمها وخرج ، ولم تمض ليلتان حتى ضبط فى الليل متلبسا بسرقة ، كان الخفير نائما ـ لكن الخروف المسروق حرن منه فى الطريق فاضطر « بركات » إلى أن يحمله مع أنه ثقيل ومشى يلهث به ليخرج من أقرب طريق إلى الحقول لكن الكمامة التى كانت عبارة عن حبل ربط به فك الخروف كانت قد انسلتت فصاح فى جوف الليل كأنه يستنجد برجال الأمن وفكر « بركات » فى أن يتركه ويهرب لكن الخفير أدركه وقادهما إلى « العمدة ، وقال له الناس

ليلتها هذا المثل المعروف ومن أجل والده الطيب أعيد المسروق إلى صاحبه على أن يرحل هذا الخائب عن القرية .

ولم يكن بركات محتاجا إلى هذه النصيحة فقد كانت الأفواه تنفرج عن ابتسامة مخزية كلما مر في طريق .

كانت « بهية» لاتزال تحملق فيه خائفة منه . تفكر ماذ تقول له .. وقدمت زوجة أخيها طبقا من العنب .. ثم نظر « بركات » إلى زوجته بعينيه المدمنتين القويتين وقد أسند ذقنه إلى قبضة يده ـ ورضا في حجرة أخرى مع بقية الأولاد ـ فبادلته الزوجة النظرة وانسحبت وأقفلت وراءها الباب وتلفتت « بهية» فرأت نفسها وجها لوجه مع أخيها الذي يريد أن يعرف كل شيء .

***

كانت « بهية » مطرقة نحو حجرها تردد في نفسها المثل التاريخي بالنسبة لها ولأخيها : « أسرق جمل .. اعشق قمر » وأفاقت سريعا على صوته العميق الذي يشبه صوت ممثل الاتهام :

ـ خير يا « بهية » .. خير إن شاء الله !

ـ خير ياخوية ..

وصمتت ثم قالت بدموعها وشفتاها ترتجفان إلى حد بعثر كلماتها:

ـ أنا مظلومة ..

فرد بغضب وضيق صدر :

ـ الله يظلم أبوك حب يعمل من الأعيان فباعك للإنجليزى .. للأرناؤوطى الحاج ماضى !

وظلل صمت قصير ، وكانت ضحكات الصبيان فى الحجرة الأخرى عالية ساخرة من شىء هناك تمنت « بهية » أن تعرفه . وندمت على اتخاذها هذه الخطوة وأحست أن وجه « بركات » وعينيه تفيض بالنقمة على أشياء لاتعرفها ، فلم يعد هو ذلك الشاب الطرى المشرق الذى يبدو فى رقة التلاميذ ، وجهه يدل على أنه يسهر الليل وينام النهار وشاربه الأسود واضح فى وجهه الخلاسى .

وتنحنح كأنما يريد أن يعيدها إلى وعيها وعاد يقول :

ـ خير .. خير ان شاء الله ؟

فقالت بانكسار :

ـ لفقوا لى تهمة يا« بركات » .. باطلة والله العظيم .. آه .. آ..

ـ تهمة ؟

ـ آه ..

فقال بطريقة مخيفة :

ـ سرقة ؟! سرقة مرة أخرى ؟!

وعندئذ فكرت « بهية » ، أسعفتها البديهة فل ترد سريعا لترى على الأقل فكرة أخيها عن الموقف بعد الأعوام التى عاشها هنا بعد حادث سرقة مشين . ولما طال سكوتها أيقن الأخ أنها سرقت أيضا ، فقال وهو يرمى بعقب السيجارة من النافذة لكن بهدوء نسبى ونبرة

تهكم :

ــ يعنى سرقت مثلا .. مصاغ أم « حمودة » ؟! .. جواهرها ؟! وخاتم الخطوبة الذى قدمه لها الأرناؤوطى .. هىء !

وحزنت « بهية » أحست أن القدر يضيق عليها الخناق ، تمنت لو أن « بركات » ثار فى وجه هذه الجريمة وقال لهاالمثل القديم .

وأشعرها الموقف بأنها لابد أن تقول شيئا فقالت :

ــ لايا « بركات » .. تهمة تانية ..

فتأهب ، واحمر بياض عينيه وأخذ يمشط شعر رأسه المجعد الطويل بأصابعه وقال لها ضاحكا متهكما :

ــ فاكره : « .. اعشق قمر » قولى

***

وبعد أن فرغت من القصة مال عليها وأمسكها من شعرها وشده فى عنف وهو يحذرها أن تصدر صوتا وسألها عن دليل لبراءة ساحتها فذكرت له اسم الحاج « محمود » .. إنه يعرف أسرار مايدور هناك كما يستطيع أن يعرف سلوك « بهية » .

وصمت الأخ ، وحمل رأسه بين كفيه وأطرق نحو الأرض ، وأخذ يفكر: إن الحاج « محمود » رجل صالح ويعرف الأمور هناك ، وربما كان ماحدث قد دبره « حمودة » حقيقة ليلوث عرض زوجة أبيه ويتيح فرصة للأرناؤوطى أن يحرم « بهية » وابنها من كل شىء ، لكن .. أليس من الجائز أن تكون التهمة صحيحة ؟!



انتفض قائما كأنما وصل إلى قرار وفتح باب الحجرة

وظلل صمت قال بعده في أسى يغلفه هدوء مغلوب :

ــ ضروري يا « بهية » .. إن كل واحد منا . يخرج من البلد بحادثة ؟! آه .. الأمر لله !

وانتفض قائما كأنما وصل إلى قرار وفتح باب الحجرة فتدفق الصوت من أركان الشقة يحمل ضوضاء الصبيان ، ونادى « بركات » على زوجته بصوت غليظ يخبرها أنه ذاهب إلى القهوة وأن عليها أن ترعى الضيوف .

وبعد أن خرج التقت « بهية » بزوجة أخيها فأحست بالغربة ، كانت عيناها المكحولتان ونظراتها الناعسة الفاجرة وصوتها الفاتر ومشيتها المتأودة في مبالغة تبعث في نفس الريفية خوفا وغربة وكان أول سؤال وجهته الزوجة إليها عقب خروج « بركات » أن قالت بلاتحية:

ــ جاية تزوري الست أم هاشم ؟!

ــ لا .

فاستطردت بلهجة ذات مغزى ردىء :

ــ سيدنا الحسين ؟!

ــ لا .

فقالت من خلال ضحكة متهالكة وهي تمر كفا على كف كأنها تفتل حبلا :

ــ يبقى سيدي « البرموني » .. نظرة ياسيدي ..

هيء هيء ..

وولتها ظهرها فحملقت « بهية » تفحص عودها وأدركت أن للمدينة عذابها كما للقرية عذابها. وشعرت كأن الأرض لم يعد فيها مكان يسع اثنين ، هل هو أبوها كما قال بركات ؟ هل هو الحاج « ماضى » ؟ أم « حمودة » ابنه ؟ . أم هي المسئولة ياترى ؟!.

وأسندت رأسها إلى الكنبة وهى جالسة على الأرض فأخذتها سنة من النوم خيل إليها بعد أن ذهبت عنها أنها اتخذت فيها رأيا أوحلمت فيها حلما ، إذ رفعت رأسها عن جانب الكنبة وهى موقنة أن « رضا » مسئول كذلك ، ليس عن الماضى لأنه لم يكن موجودا . وليس عن الحاضر لأنه لايزال ضعيفا . لكن مسئوليته مربوطة بالمستقبل .

٤

الأرض ومن عليها

أصبح الناس يتهامسون فى العزبة أن كل شىء قد صار ملكاً لـ « حمودة » وكان « حمودة » يشعر بسرور يخالطه زهو عندما كان يصعد فوق سطح الدار فيرى حدود أملاكه بين أسوار التين وأشجار السرو ، وخميلة من النخل على مقربة من الداريقف بعدها برج الحمام .

ومع كل نظرة إلى هذه المساحة كان يستشعر زهو من فرغ من عمل شىء رائع يدل على القدرة مثل زهو صانع أو فنان مع أنه لم يصنع شيئا .

كانت الأرض هملا تنتهى بعدها ببضعة كيلومترات نحو الشمال ترعة شحيحة والذين يملكون أرضا على أطراف هذه الصحراء وشط هذه الترعة كانوا يأملون فى المطر أكثرمما يأملون فى ماء الترعة .

وكان الحاج « ماضى » يملك بضعة أفدنة هناك ظل يمدها بوضع اليد عشرسنوات انتهت سنة ١٩٣٠ ، والصحراء رحبة الصدر .. قدرت على حمل أطماعه ، ظل يحلم بالأرض منذ شبابه الأول فلما اشترى هذه

الأفدنة بثمن بخس مما ربحه من تجارة الماشية أخذ يحمل ألواح التين الشوكي حينا بعد حين ويزرعها ليحدد بها معالم عزبته .

كان الفلاحون يرونه وقد ركب حماره وأمامه الألواح فيتضاحكون ويهمسون :

ـ الحاج « ماضى » معه أحجار المبانى .. لسور العزبة الجديدة .

وكم كان يلقى عناء فى نقل الماء إلى التين حتى دبت فيه الحياة . وقبل أن يشيخ ويقهره الصرع كان يلذ له أن يمشى جنب الأسوار والرمل يملأ نعليه ويستعيد ذكريات أيامه الماضية ويبتسم ، ويتخايل له من بعد شبح لرجل هو الحاج « ماضى » نفسه يقود قافلة من المواشى عائدا من السوق فى حر الظهر أو برد الشتاء سائرا على قدميه بالساعات حتى إذا ما وصل إلى الدار استقبلته « منيرة » باهتمام الزوجة وقدمت له كل ما يريد ..

كان كل شيء فى نظره يمشى إلى الأمام وكل من حوله يطيعونه حتى « حمودة » ابنه لكنه استيقظ ذات صباح على خبر كاد يطير له صوابه فلم ينم . ذلك أن زوجة وزير الزراعة قد اشترت من الحكومة أربعمائة فدان تقع شمال أرضه ببضعة كيلومترات من الجدب وعندما تزرع هذه المساحة وتعمق الترعة وتوسع فسيتغير الموقف فى أرض الحاج « ماضى ».

وأصيب بأرق طوال أيام حفر الترعة ، لم تكن داره قد انتقلت بعد إلى هناك ، كان لا يزال فى القرية .. يتقلب طول الليل مسهدا على

حشية قديمة مبسوطة على الأرض ، والعمامة معلقة على مسمار ، وتأخذ الحاج « ماضى » نوبة من الندم على أنه لم يتوسع فى غرس التين ثم يتصور أن كل شيء قد توقف وأن زوجة الوزير عدلت عن الصفقة ، وينهض من الفراش حين يحس أن الهواء أصبح خانقا فيخرج هائما على وجهه ، ويفطن إلى أنه هناك .. يشاهد تحت ضوء القمر أو النجوم الدنيا المنتظرة ويرى أكوام التراب التى خرجت من جوف الترعة .. فيحس طمأنينة وأمنا وجهدا يناديه للراحة فيعود أدراجه .. ليغفو ساعة من الليل .

لكنه بعد الحوادث الأخيرة يود لو أن كل شيء عاد إلى الوراء ، لو يبذل الجهد وينال اللذة كما كان يحدث فى الماضى ، وبعد أن خرجت « بهية » وابنها من العزبة وقبل ذلك بأسابيع كان « ماضى » يحس باهتمام زوجته القديمة وإقبالها عليه ، فظن أنها تريد أن تكفرعن جفوتها الطويلة التى بلغت غايتها بعد أن علمت بزواجه من الأخرى .

وكانت « منيرة » تطلق له البخور فى الحجرة وتذبح له دجاجة ليلة بعد ليلة ، وكان يستمتع بهذا كارها حتى إذا ما جاءته نوبة الصرع فأفاق رآها وقد جلست تدلك قدميه الخشنتين بيديها البضتين فيبتسم ابتسامة الشك .

والآن قد عاد كل شيء إلى ما كان عليه وبدت على وجهها ووجه « حمودة » طمأنينة من فرغ من قضاء « المهمة » .

وأطرق الحاج « ماضى » إلى الأرض وفضاء الحقول أمام عينيه ،

تذكر الليلة الأخيرة التى قضاها فى دار « بهية » قبل أن يحدث ما حدث لها بشهور .

كانت إحدى ليالى الشتاء الجافة حين استيقظ سكان العزبة على حريق شب فى دارأحد الفلاحين . ولم يكن الأمر ذا بال لكن الحاج « ماضى » رأى فرصة سانحة للخروج . لقد كان يذهب إلى « بهية » كما يتسلل اللص فقد كان « حمودة » مصادرا لإرادته ، وتخاذل حبه لها بعض الزمن حتى أصبح « رضا » بالنسبة إليه أشبه بالمواليد الذين يهرب منهم آباؤهم .

وعندما انطفأت الحريق وعاد الحاج « ماضى » قافلا إلى الدار كان الظلام والسكون يغمر الطريق والمزارع ، ومر على دار « بهية » كان الباب مواربا فوجد نفسه يدلف إليه . وكانت يد « بهية » فى هذه اللحظة تدفع الباب لتقفله ولم تحس بزوجها فى الخارج ولم يستطع الرجل أن يرفع صوته فوضع عصاه بين الباب والحائط فحال بينها وبين أن تقفل ، وشهقت المرأ ة وسألت بهمس :

ـ من ؟

ـ أنا .. أنا « ماضى » .. افتحى يا « بهية » .

ودخل وأوصدت الباب وظلت واقفة مكانها فى الدهليز على حين سبقها هو إلى الداخل فى جلباب قديم وعلى رأسه عباءة ، وعضت أصبعها وهى واقفة وخنقها البكاء لكنها سارت إليه حين سمعت نداءه . وكان الدفء يملأ الحجرة وابنه غارق فى النوم تحت غطاء من

صوف الغنم به خطوط وخروق أما هى فكانت تلبس جلبابا من الكستور غير معروف اللون ظهر كوعها من قطع فى كمه ، وجلس الحاج « ماضى » على الحصير المفروش وأخذ نفسا عميقا . كانت رائحة الأرز والوقود تملأ أنفه وأغراه الدفء بأن يمد ساقيه فظهرجلده الأملس القليل الشعر ، واتكأ بظهره إلى الحائط وتأوه فى تلذذ كمن يتمطى .. وضحك ..

أما« بهية » فقد كانت عند الحائط الآخر تجلس القرفصاء وقد ضمت فخذيها كأنها فى « دفاع » ، كانت نفسها مليئة بالاشمئزاز ، أحست بإحساس الجوارى بعد أن يكبرن .. كأنما كان كل شىء بالنسبة لماضيها قبل الزواج حلما أو كابوسا ..

وناداها « ماضى » وسألها :

ــ انت خائفة ؟

فهزت كتفها .

ــ لم يبق شىء أخاف منه . أنت الذى تخاف .

ــ من الله طبعا .

فضحكت مستهزئة :

ــ ومن « حمودة » ..

وسكتت ثم أردفت :

ــ إننى لم أحمل حراما .. إن هذا النائم من هذا الصاحى .

وأشارت إلى ابنها وإليه .. فهمس :

ـ هل أغلقت باب الدار ؟

ـ وهل انت تسرق ؟

وهبت كالملسوعة :

ـ سأقوم وأفتحه .. وأسأل الخفير عن ورقة سيجارة لف ليعرف الناس أنك عندى ..

فأمسك بذيل ثوبها ورجاها بضعف الشيخ ورغبة الشاب وخوف اللص ألاتخرج وأجلسها على مقربة منه فأخذت تنتحب .

وعندئذ انفتح باب العتاب . أخذ يمسح دموعها وهى تكيل حقائق كأنها اتهامات : إنه يرمى لهم الفتات ، وابنها يذهب إلى مدرسة القرية سائرا على قدميه مسافة تحتاج إلى ركوب .

وعندئذ تحرك الغلام من فراشه .. ونادى بأعلى صوته :

ـ « العب ياحسن .. العب يا بوعلى .. » .

ونظر الزوجان إلى بعضهما وتحدثت عيونهما عن معنى الحب .

فقد كان الأب يعرف ما بين ابنه وصديقه « حسن » .. وظهرت قدماه من الغطاء فبدا عليهما آثار الحفاء .

وطلب « ماضى » من الزوجة أن تدلك ساقيه هو لأنه يحس ألما . وكانت لهجته مزيجا من الحقيقة والرغبة فهزت رأسها نفيا .

ـ لماذ تمتنعين ؟

ـ حرام !

ففتح عينيه عجبا :

ـ حرام ؟!

ـ إن كان هذا ابنك تكن انت زوجي .. أعطه حق الابن وخذ حق الزوج .

ـ هل جننت يا « بهية »

فردت بلهجة مرتعشة :

ـ لا .. تعال في النهار .. أنت لست عشيقى .

فعض على شفته وأحس طنينا فى أذنيه ، واحمر النور فى عينيه كأنه على أبواب الصرع ، وغضب غضبة المهزوم فسحب عصاه ولوح بها فى وجهها :

ـ تتكلمين عن العشيق ياسافلة .. من يعلم ؟ .. ربما فعلت لو ملكت ..

ثم رمى بالعصا وطوق عنقها بكفيه كأنه يريد أن يخنقها وعندئذ انبثقت من الماضى صورة .. صورة قديمة لرجل دفأه ذات صباح بملابسه الشخصية هو أبوها . ثم صورة الحاج « ماضى » نفسه ليلة خطبة « بهية » حين أمسك بكفى أبيها وطوق بهما عنق نفسه ، ثم ضحكا .. وتمت الخطبة ليلتئذ .

كانت تقول وصوتها مخنوق :

ـ اقتلنى .. ليتك .. تقتـ.. لـ.. نى

وأفرج عن عنقها ، ورفع عينيه عن وجهها فسقطتا على ابنه .

كان على وجهه دلائل حلم .. كابوس ..

وانخرطت الأم فى البكاء .. وأدارت له ظهرها وهى جالسة فرأى ضفيرتيها على ظهرها كلا على ناحية .

وفاجأهما صوت يصرخ .. صوت الغلام .. الذى هب جالسا وقد نفض الغطاء :

ـ الثعبان .. الثعبان . يا أمة .. الثعـ

واسترد وعيه ، وحملق فى كل شىء ، ثم همس كمن لايصدق :

ـ أبويا .. آ ا.. بويا .؟!

وعاد فانطوى من جديد ، وفى هذه المرة سحب الغطاء الصوفى كله ليحجب به وجهه .

ولم تغمض للحاج « ماضى » عين ليلتها حتى أذن الفجر .

***

وجاءه وهو فى مكانه أذان آخر .. ردده الحاج « محمود » فى المصلى القائم على الترعة ، وكان أذان العصر ..

وبينما هو يستعيد ذكرياته سمع صوت « حمودة » من بعيد يصرخ بين الحقول ، كان يسب ويلعن كأنما الزرع فى أرضه لاينبت إلا بالغضب والهواء يحمل إليه صوته القاسى . ثم عاد السكون وارتفع خوارثور وأنين ساقية فتخايلت للحاج « ماضى » صورة ابنين ، أحدهما غائب لايعلم كيف حاله الآن والثانى « حمودة » أيام كان ابن ثمانية أعوام حين خطف زميله سليمان شملة خادم الضريح فى أول النهار من رمضان وفى الوقت الذى كان الخادم النصف الكفيف يطارد الغلام

وبصرخ كان « حمودة » يقضى المهمة التى اتفقا عليها .

وحين رجع الخادم في المساء لينير الشمع فى ضريح ولى الله وجد كل شيء قد سرق فأدرك سر ما حدث صباحا ، وفى هذه اللحظة كانت مجموعة من الصبيان يعبثون بالشموع على طول الحارة .

وقال الحاج ماضى » فى نفسه : وقد عمل سليمان مأساة أخرى ، فهو الذى تسلق النخلة وهبط ساحة الدار على « بهية » .. ثم سكت ، ثم تساءل : لكنها كانت تتكلم عن العشق ؟! أليس جائزا أن يكون كل شيء صحيحا ؟

وفى هذه اللحظة ناداه صوت متعب ، كان صوت أحد الفلاحين .. وتقدم من الحاج « ماضى » ووضع فى يده شيئا كما يضع قطعة من النقود وحملق « ماضى » بدهشة فقد كان فى كفه ضرس كسر على أثر لكمة .. سددها « حمودة » إلى الرجل أثناء العمل ، ومضى الفلاح فغسل فمه وحمل الضرس إلى الحاج « ماضى » فى الوقت الذى كانت فتاتان من الفلاحات يتغامزن بعيونهن ويقلن إن زوجة « المضروب » لم ترض « للضارب » ، وقال الحاج « ماضى » باسما بعد أن عرف كأنما ليخفف عنه الإصابة : « غدا ينبت لك غيره مثل بنتك بدور » .

فرد الفلاح فى غيظ : لا والله ، الواجب أن تقول مثل ابنى « حسن » سأقدم هذا الضرس هدية له .. سلام عليكم ياعم الحاج !



ومضى الفلاح فغسل فمه وحمل الضرس إلى الحاج ماضى

٥

من كان منكم بلا خطيئة ..

وعجبت « بهية » حين رأت بيت أخيها مليئا بالذرية والخيرات وضيق التنفس . فأحست أن شيئا ينقصه .. شيئا هاما غير ماتراه ..

كان نصف الأولاد يحملون لقب والد ونصف آخر يحمل لقب والد، والأم واحدة تبدو في سن الزوج ، وبياض عينيها الحوراء يحمل حمرة مريبة حملقتها كعين طال بها السهر وزال منها الحياء .

وهى فى واقع الأمر سر نعمة بركات . وكل شيء تحت يده آل إليها بالبيع والميراث عن زوجها الراحل صاحب القهوة السابق الذى كان « بركات » يعمل معه عقب هجرته من الريف .

ولما مات ذلك الزوج رشحت الإشاعات صبيه القديم للزواج من أرملته ، وتم كل شيء بهدوء بعد نصف سنة كأنما الحوادث كانت تعد له من قديم . وهذا سر السيطرة التى يقع تحتها « بركات » فى بيت الزوجية لعلاقة اشترك فى نسجها الإثم والمنفعة والضرورة ثم .. العقد! حتى كانت رائحة البيت بالنسبة لهذه الريفية الوافدة مثل الرائحة التى

يشمها المرضى من داخل نفوسهم . وأحست أن شقيقها فى رخاء لكن ابتسامة واحدة لم تنطبع على فمه طوال الأيام الستة التى أقامتها فى البيت .

وطول النهار كانت تقوم بأعمالها فى صمت . بالأعمال التى يمكن لريفية مثلها أن تؤديها فى المدينة .

وكانت لاتقوى على أن تنظر فى عينى زوجة أخيها . وتعجب لماذا لا ترى فى رأسها شعرة بيضاء . وبعد منتصف الليل تسمع وقع أقدام أخيها وهو عائد . وقد تتناهى إليها ضحكات هلوك من زوجته وهما على العشاء المتأخرفتكتم أنفاسها وابنها إلى جانبها وتصمم مائة مرة على أن تطلب فى اليوم التالى من أخيها شيئا غير الإقامة هنا .. وفى الصباح عندما ترى وجه ربة البيت قبل أن تطلى بالمساحيق وترى أثارا كأنها مكاره أو بلايا طبعت عليه ـ يشل الخوف إرادتها فلا تتكلم وتستسلم للعمل الصامت الذى يشبه عمل الأسير. ولايلبث ابنها أن يذهب إلى خاله فى القهوة يقضى اليوم فى مساعدة « عزوز » أو فى الجولان غير بعيد حتى لايضل الطريق .

وكان « بركات » يؤمن بينه وبين نفسه أن حياته كان من الممكن أن تسير على غير هذا النمط . فهو يوم خرج من القرية كان مثل التائه فى الصحراء يقدر أن كل خطوة إلى الأمام ربما أبعدته عن الغاية . قلبه شديد الحساسية ونفسه كثيرة المطالب . ولما استقر به المطاف فى هذه القهوة ورأى وجها من الحياة فيه غرابة ومخاطر تذكرأن الذين يعرفونه

فى الريف لم يشفقوا عليه عند الغلطة الأولى ، وأن العودة إليهم مستحيلة . ولذلك أسلم أمره لصاحب القهوة . وشهد المكاسب غير المشروعة التى تدخل إليه مع نظرات الترقب فى العينين المنتوفتين . وشيئا فشيئا زال عنه القلق وشمله هدوء من تعود النوم فى العراء ـ ولبس الصوف والحرير .. والخواتم الذهبية.

وملأ الشباب عوده الممشوق وغابت عنه طراوته المعهودة وحلت محلها صلابة المغامر .

غير أن اللون الطبيعى لنفسه كان لايزال كامنا خلف هذا المظهر. وكان من الممكن أن يحدث تحول فى حياته لو انتقل إلى جو آخر لكن .. حدث فى إحدى الليالى أن برز مجهول من المهربين المنافسين من إحدى خرائب الأوقاف وطعن صاحب القهوة بسكين فى كتفه من الخلف ثم فر فى الظلام . ولم يمت الرجل فقد سمع الناس استغاثته ونقل إلى المستشفى فظل بضعة شهور حتى عاد بعض الحياة إلى ذراعه اليمنى لأن الطعنة أحدثت بها شللا .

ووقع على « بركات » عبء العمل كله . وتملكته فكرة الإخلاص بمنطق الريفى وحماس الشاب فانسجم مع العمل الإضافى غير المشروع الذى يديره صاحب القهوة بالنيابة . وتحول الدخل إلى جيبه وزادت البركة .. وأحست الزوجة أن شيئا جديدا يطوف بحياتها فترددت إليه وشجعته .. ثم منحته الشرف الذى منحته ذات ليلة إحدى الملكات لحارسها الخاص . غير أن حارس هذه السيدة لم يكن كحارس الملكة

فقد شعر بالندم وتأنيب الضمير .

وبمرور الزمن أخذت العادة قوة الطبع وكان الزوج لايزال على قيد الحياة ولكنه ليس في الأحياء .

ثم تزوج « بركات » هذه المرأة بعد وفاة زوجها وامتدت العلاقة التي اشترك في نسجها الإثم والمتعة والضرورة منذ سنوات .

***

ظل « بركات » يستعرض هذه الحوادث طول الأسبوع الأول من إقامة أخته في بيته . وكأنما كان يذكر تفاصيل ماوقع من خلال صدى حكمة قالها المسيح « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر »، وتذكر كيف كان مشدودا إلى مصيره بقوة لايعلمها وكيف أنه حتى الآن لم يصبح قتيلا ولاسجينا ، وكيف أن الأولاد الذين يعيشون في بيته أنتجتهم امرأة في ظل ثلاث علاقات من رجلين ؟

ولايحسن العزاء مثل الحزين .. لذلك فإنه عفا عن أخته ـ بصرف النظر عن الواقع ـ بطريقة فيها روعة بعكس مافعل والده معه لو أنه عفا بحق .

وقبل أن يخرج إلى القهوة دخل عليها في هذه الليلة ..

كانت عيناه منتفختين وضيق صدره يظهر في تنفسه وتحسسه له . ورائحة التبغ مع ذلك تفوح من فمه .. وجلس على الكرسي وانحنى نحوها وحملق وقال :

ـ من اليوم لك حجرة مستقلة « يابهية » ..

فنظرت لاتصدق . فاستطرد :

ـ لتكونى حرة . وظل ينظر إليها نظرات تذيب الحديد . وتنفس ملء رئتيه ثم أكمل :

ـ هل تعرفين معنى الحرية ؟ الحرية تحت مراقبتى .. وحجرتك قريبة من القهوة في أحد بيوت الأوقاف .

ونهض متكاسلا وهو يقول وظهره لها :

ـ رتبى نفسك ياحبيبتى ..

***

ولم تصدق بهية كل ما رأت . أصبح لها حجرة يظللها الأمان ، فيها سرير وأدوات منزلية . وعند ارتفاع الضحى يطرق « عزوز » الباب أو الشباك ليقدم ما بعث به أخوها من طعام .

وعندما يستلقى المتعبون وتدب الراحة إلى أجسامهم يتذكرون تفاصيل المتاعب الماضى منها وما قد يضمره الغد .. نعم . ودخل « بركات » على أخته بعد أسبوعين . كان يحمل تحت إبطه شيئا ملفوفا ، كشف غطاءه وهو سعيد وقدمه لـ « بهية »، كان صورة كبيرة له عملها حديثا واستقبلتها الأسرة الصغيرة بحب وفرح ، ووقف « بركات » على كرسى منخفض وثبتها على الحائط . وأحس بالزهو وهو يبتعد عنها مراقبا نظرات الفرح والاعتزاز في العيون من حوله . لعله كان مشتاقا إلى حب بلا أشواك فيه شىء من الروحانية . كرغبة السكران فى الابتهال إلى الله ، فقد كان المكسب الحرام والحياة الزوجية

الثقيلة الوطأة دافعا خلق فيه اللهفة إلى عمل شيء فاضل . أو ضرورة الإحساس بالمشاعر النظيفة . كحنين الساقطات إلى الأمومة .

وسأل أخته ببشاشة :

ــ هل فكرت في مستقبل ابنك ؟

فردت بحزن :

ــ وهل بقى له مستقبل ؟

فقال وملامح تكسو وجهه :

ــ لا تحزنى .. سأجعل « عزوز » صبى القهوة يعلمه .. وبعد أن يتعلم أطرد « عزوز » .. وأكمل بمرح » وأعينه في وظيفة « عزوز » الخالية . هه .. موافقة ؟

فردت بالصمت .. وعندئذ أحست أنها تهاجم مهنة أخيها وهى تأكل منها ، وهمت أن تتكلم لكنها رأت على وجه « بركات » معانى لا يدركها أحد كلها سهوم . ولمعت عينا ابنها السوداوان ببريق خاطف. وذكر في وهلة واحدة الدنيا التى تركها في الريف : المدرسة والمزرعة و « حسن » و « بدور » وحقا مقدسا .. وأبا لايزال على قيد الحياة .

ونظر إليه خاله فرآه متشاغلا يتأمل صورته التى علقها على الحائط ولم يلبث « بركات » أن جره بعنف وغمر وجهه بالقبلات وقال له :

ــ ستذهب إلى المدرسة يا « رضا » .. لا تخف . خالك لن يجعلك مثل خالك .. ولامثل « عزوز » .

وعندئذ بكت « بهية » .. كأنها زايلها التخدير الطبيعى الذى يصحب الكوارث . وكان « بركات » يحملق فى السماء من خلال النافذة محاولا أن يفسر تلك الظواهر المتوالية التى وقعت لهم مع أغنياء الريف كأنما كان هو وأخته وابنها نقطا من الزيت على سطح إناء من العسل . محال أن يمتزج الكل بحال ..

وهز رأس يؤكد هذا المعنى وأسنانه على شفته السفلى وتحسس تلقائيا حافظة نقوده فتذكر أنها مليئة فهتف كمن أفاق :

ـ ولايهمك يا « بهية» .. ولايهمك يا « رضا » .. تتعدل حالا تتعدل ..

وخرج للتهريب ..

وبعد أن خرج أحس « رضا » بحاجة إلى النوم . أحس أن رأسه ثقيل . فتمدد يحملق إلى الحلى النحاسية التى تقف على كل عمود من أعمدة السرير كثمرة كمثرى .وطنين الرابور يملأ سمعه ، وأمه تخرط البصل وفى عينيها دموع . وطافت به ذكريات العزبة . فأحس فراغا . وتذكر « حسن » .. برز إليه من خلال الحوادث بشكل قاهر . وتنهد الغلام فى اللحظة التى كانت فيها بهية « تطش التقلية » فالتقى عصير الطماطم بالسمن المقدوح ..

كم كان يحبه .. وفى الأيام التى لا عمل فيها كان يلتقى بحسن أمام كوخ أو على شاطىء ترعة ويعلمه ما تعلم فى المدرسة . فأضاف بهذا إلى معلوماته القليلة معلومات جديدة يوما بعد يوم . وكادا

يطيران من الفرح يوم بدأ حسن يقرأ في أحد الكتب .

وكادا يمسكان السماء بأيديهما . وأصبحت كتب « رضا » كلها ملكا لصديقه وفاجأهما ذات يوم « حمودة » وهو راكب على بغلة .. فلم يشعر به الغلامان إلا وهو واقف . وكان المساء قد نزل . ونزل من فوق البغلة وأقبل عليهما بوجهه الأحمر . وأحس الغلامان بالخطر فدخلا إلى الكوخ المهجور.

وعندئذ تقدم وركع وضربهما بعود من الخيزران ، ومر على أحد الفلاحين فحاول منعه . فنظر إليه « حمودة » وقال بهدوء جارح :

ـ سأتركهما .. لكن اسألهما انت .. لماذا .. يلجأ غلامان في مثل سنهما إلى مثل هذا الكوخ .. في مثل هذا الوقت ؟

وعندئذ بدا على الفلاح حرج وكدر ، وتناول « حمودة » الكتاب ورمى به في الماء وأخذه التيار.

وعلى الرغم من هذه الذكرى فإن « رضا » ينتظر خطابا من « حسن » .. إنه قادر على أن يكتب شيئا . وتمنى أن يراه ذات يوم في القاهرة . في بدلة نظيفة . ثم أغمض جفنيه .. وسأل نفسه بصوت يكاد يكون مسموعا :

ـ خلاص ؟ . . ممنوع السفر لبلدنا خلاص ؟ .

وأحس بألم لم يعرف سببه لكن قلبه خفق منه ، كتعبير الرضيع بالبكاء عن كل رغبة.

وأحس بالظمأ فهم أن يقوم ليشرب لكن شيئا مثل الخدر أبقاه في

مكانه وعاودته ذكرى الترعة والماء الذى يخالطه الغرين .. وخميلة البوص وأكداس الحطب ، وطاحونة الهواء التى طالما صنعهاحسن من الغاب وأهداها إليه .. ثم الطنبور .. والشوك الذى ذهبت « بدور » لتجمعه فدخلت فى رجلها الشوكة .. « آه ..آخ .. آه » وتتابعت الصور حتى جاء دور الغلام الذى عيره بأمه . فنظر إليها وسأل نفسه فلم يجد جوابا إلا أنهم هنا عقب تلك الحوادث ، لم يكن قلبه مصدقا شيئا ممانسب إلى أمه . وفجأة شهق بالبكاء ، ومن خلال الدموع اختفت صورة خاله وحلت محلها صورة ريفى عجوز أحمرالوجه ضيق العينين دقيق الشفتين . يئن إذا ما أحس بالحرج كأنه يحمل شيئا ثقيلا.

ونظرت إليه أمه وهى فى مكانها وسألته عما يبكيه ، فلما لم يرد قالت فى نفسها : « ولماذا ألومه ؟ .. يجب أن نبكى » .

***

ويخط ملىء بالأخطاء ، وقلب ملىء بالفرحة تلقى « رضا » خطابات من صديقه فى القرية على عنوانه بمدرسة البراموني الراقية حيث ألحقه خاله مع أحد ابنائه ..

وبروح الابتكار التى سادت طبع حسن أخبره عن شيئين هامين : أولها أنه يواصل تعلم القراءة والكتابة فى كتبه وبواسطة عادل ابن الحاج محمود . وثانيهما أنه احتفظ بالضرس الذى أسقطه حمودة من فم أبيه على سبيل الذكرى ، دقه على باب الدار كما يفعل الفلاحون

على سبيل الفأل حتى لا تتساقط بقية الأسنان .

وعندما دخل الشتاء الأول على « رضا » فى القاهرة كانت الأمور على ما يرام ، فقد كان يتأمل الأرض اللامعة المرصوفة عقب الأمطار ويتذكر حسن ، وكذلك المشوار الطويل الذى كان « رضا » يقطعه كل يوم إلى المدرسة فى أقرب قرية ، ونعل الحذاء المخروق الذى يتسرب منه البرد والطين . وتذكر يوما شاتيا .. حالت فيه بركة من الأوحال بينه وبين أن يعبر الطريق . وعز عليه أن يرجع بعد أن قطع المسافة ، وأصبح أقرب إلى القرية منه إلى العزبة ، وفجأة رأى حسن .. وكان ذاهبا إلى الحقل وعلى رجليه الحافيتين شىء مثل قشر السمك ، وأقبل عليه وحمله على ظهره .. وخاض به الأوحال حاملا أدواته المدرسية فى حجره أيضا حتى لا تسقط .

لم يكن يخطر على باله إلا الأصدقاء ، أما أبوه فقد صار أشبه بذكرى قديمة فى رأسه لمعمر لم يكن يذكره بوضوح إلا إذا سمع أحد يلعن والد أحد . عندئذ فقط يتذكر كلمات « الأرناؤوطى ـ الإنجليزى » التى كان يشتم بهما فى مدرسة القرية .

وذات مساء بينما كان وأمه ساهرين تناهى إلى سمعهما عويل امرأة من الجيران وعرفوا بعد قليل أن زوجها قد مات ، ولم تكن « بهية » تعرف الزوج ولا الزوجة ، لكنها انخرطت فى بكاء حمل ابنها على أن يسألها : هل تبكين لو أنك علمت بوفاة أبى . فنظرت إليه بدهشة ومسحت دمعها ثم قالت له :

ـ نعم .. لأننى أخاف عليه من الله .

فقال « رضا » :

ـ وماذا يهم ؟. إن خالى خير عندى من مائة أب ..

فنظرت فى عينه ، لكنها لم تستطع أن تكشف ما إذا كان ابنها يعرف حقيقة مهنة خاله ؟

وتذكرت الحرام والحلال ، تلك الكلمات التى كان أبوها يرددها ويتشدد فى تنفيذها وهو الساعد الأيمن فى غش المواشى مع الحاج « ماضى » ، ومن هذا المكسب وقبل أن يعودا من السوق يجلس هو وصديقه إلى بائع العجوة . وعندما ترجح كفة الميزان لصالح والدها يبدى تحرجا وخوف الله ، فى الوقت الذى يكون الحاج « ماضى قد فتح حكاية مع البائع ليأكل ويتكلم حتى يملأ نصف بطنه .

وتصورت ذلك اليوم الذى ينكشف فيه أمر أخيها . وعندما حكى لها ذات مساء عن الصعوبات التى لاقاها عقب الهجرة أحست أنها وهى وابنها سيتعرضان لمثل هذه الكوارث . وكانت الليلة شاتية والمطريسح فى الحوش ، وأخوها قد أقفل المقهى فى وقت باكروعرج على مسكنهم . ولما وصف لها الليلة التى اعتدى فيها على معلمه القديم وكيف نقل إلى المستشفى فى قميص من الدم ، أخذها خوف جارف . ثم سكت « بركات » واستمع إلى وقع المطر . وقال لـ « بهية» كأنما يحمل إليها حكمة :

ـ تعرفى ياأختى .. الذين يهاجرون من الريف إما من السعداء

وإما من الأشقياء .. الفقير يأتى للبحث عن عمل .. والغنى يأتى ليتعلم أو ليتمتع .. بس .

ورد صوت طازج كأنه قطعة من لحن :

ـ صحيح ياخالى ؟ فاستطرد :

ـ أما معظم الذين يقضون كل حياتهم فى الريف فهم من لا حيلة لهم.

وظلل صمت .. ومن تحت السرير فاحت رائحة سمك وتوابل ممزوجة برائحة الرطوبة . وكان وجه « بركات » المنهك المضنى جامدا ، عليه دلائل فكرة . وقطع الصمت فجأة ، وقال كمن هبط عليه الوحى :

ـ اسمع يا « رضا » .. أعتقد أنك ستأخذ حقك من الإنجليزى فى يوم من الأيام .. لكن .. آه .. بطريقة .. « وشرد » بطريقة ؟ . يعلمها الله .. وضحك طويلا ثم سكت .

وكان الليل ساكتا ، وكل شىء فيه يطلب دثارا من برد الموسم ،. حتى الحوائط كان عليها دلائل البرد .

وسرح فكر كل من ثلاثتهم إلى ناحية .. فتمنت « بهية» أن تمص دم « سليمان » .. وتمنى « رضا » أن يدخل وطنه فلايرى وجها أحمر .. وتلقاه « بدور » بصدر ناهد وعينين نجلاوين ، وابتسامة حبيبة . ويلقاه « حسن » بين ذراعيه ويجريان حتى يقطعا طولاوعرضا سبع مرات كما يطوف الحجاج .. وتمنى « بركات » أمنية غريبة .. لم يكتمها فى نفسه ، بل رفع صوته كمن يتكلم وهو يحلم :

ـ يارب أعيش لأصونكم من التعاسة ..

وبدا على الوجه المدمن حنان عميق ، ورأت فيه « بهية » رقة الريفى القديم الذى عرفته منذ عشرين سنة ، فنادته باسمه كأنما تخاف عليه من الإغماء ، فإذا به يقول برعب :

ـ معلهش .. أصلى تذكرت قتلة المعلم خميس .. كانت ليلة مثل هذه الليلة.. « ظلام ومطر .. ومن الخرابة هجم عليه خصمه بسكين وكان يوم خميس » « وضحك » وأصبح الناس يقولون : المعلم خميس ضرب يوم خميس .. « وتنهد » وكلما مررت على الخرابة وأنا فى طريقى إلى بيته .. أحس شكة فى كتفى كأنها سن سكين فلا أنظر خلفى « وأكد آخر كلمة بهزات سبابته » .. وعندما سكت كان الجهد باديا عليه . وأدرك « رضا » وأمه أى نوع من الخوف يملأ قلبا منحهم الاطمئنان ، فشعر مرة أخرى أن والده سر هذه المآسى وكانت « بهية» تسأل الله سؤالا : لماذ أعطى هذه النعمة للحاج « ماضى »؟ . ولم تلبث أن اهتدت إلى الجواب : لعله يعذبه بها ! وإذا كان « رضا » يحلم بتلك الأرض التى يحدها التين فإنه حلم لايخلو من اللذة .

وناداها «بركات » برقته القديمة التى عرفتها:

ـ بهية .. إذا قتلت « لاتصرخى .. اسمعى منى ». فاشتغلى بأى عمل شريف ولو حملت القصارى فى أى مستشفى . فنحن فى المدينة .. يطاردنا القانون ويحمينا القانون ، أما فى الريف .

ومن خلال ضحكته أكمل : أنت عارفة الباقى ..

٦
والشمس تشرق كل يوم ..

بدت ملامح الشباب على وجهه المستدير الأسمر ذى العينين السوداوين اللتين هما صورة من عينى « بهية » فقد بلغ « رضا » ستة عشر عاما ، واشتغل فى إحدى المطابع عاملا فى جمع الحروف .

وكان اختياره هذه الحرفة بإرشاد من ناظر المدرسة حين بدأت هزات حقيقية تدرك حياة خاله « بركات » أولها « ستة شهور » قضاها فى السجن انتظارا للحكم عليه فى إحدى قضايا التهريب .

وفى هذه الآونة عرف « رضا » طعم الأبوة ، ولا يزال يذكر منظر خاله وهو مقود إلى غرفة الاتهام ، يمشى بسرعة منهكا لاهثا شاحبا ، أحمر العينين . ولم يعرفه « رضا » إلا بعد أن كلمته زوجته . كانوا يجتازون وراءه الممر الطويل الذى يبدو وكأنه يؤدى إلى الموت فى ذهول من ركب البحر للمرة الأولى فأخذه الدوار خصوصا عندما رأوا النظرة الغجرية غير المبالية والشفة المسترخية عن فم جميل ، وكلام جرىء لزوجة « بركات » .

وأحسوا أنها تكلم رجلا أصبح غريبا عنها ، وبدا على وجه « بركات » تحرجه القديم ورقته الفطرية .

وكان حرمانه من « عادة كل ليلة » وهو فى السجن سببا هاما فى شحوبه وشرود نظراته .

ووقف أمام القاضى ثم أعيد إلى السجن . ولم يكن ابن أخته قد اشتغل بعد ، كان لايزال تلميذا . وأتاحت له الظروف فى هذه الفترة أن يذوق هو وأمه طعم شىء جديد .. هو الجوع ، وعرفوا أن له فى المدينة وقعا حادا أشد من وقعه فى القرية حيث لا حقول ولاحدائق ولا نباتات برية .

وذهبت « بهية » إلى بيت أخيها تاركة ابنها فى الغرفة الخالية من الأثاث .

كانت تصعد السلم وقلبها يخفق . وجاءها خاطر مبهم شديد الاستحالة ضحك له قلبها وقد قاربت باب الشقة . هو أن تجد أخاها وقد أفرج عنه وعاد . ووقفت تكلم نفسها مستندة إلى ركن مستديركقبلة المسجد .. وطفرت دموعها . وخيل إليها أن صوت رجل يأتى من وراء الباب الواقع على بعد عشر درجات لم تصعدها بعد ، فآلت على نفسها أن تسجد عند قدميه وتقبلهما ، وتطلب منه أن يسير فى طريق آخر .

وبلعت ريقها ودمعها وواصلت الصعود ، وقبل أن تطرق الباب انفتح بعجلة وكاد يصطدم بها « عزوز » وهو خارج يلعق شفتيه

ويمصمص كمن أكل شيئا حلوا ، ووراءه زوجة أخيها تهدهدها ضحكة تهز صدرها .. والوقت ظهر ، والجو ملتهب ..

وتجسد الموقف كأنه على شاشة : توقف عن الحركة ..ثم تحرك بشكل محموم . فقد حملق « عزوز » ذو الوجه المستطيل بنقطتين من الوشم على الذقن وسفح الأنف . وذو التسعة عشر عاما .. حملق فى « بهية » بذهول وكراهية ونزل سريعا ، والتقت عيون المرأتين ، ولم تستطع الريفية أن تكتم ما بها فبكت ولم يسع الأخرى إلا أن تضحك ، وسألتها وهى تدعوها إلى الداخل :

ـ هل أنت آتية للعزاء ، لم يمت عندنا أحد .

وكانت فى حقيقة الأمر آتية للغداء . فجلست على وسادة فى الصالة وأمامها الزوجة ، وقد مدت على الأرض ساقين تغريان الشيوخ ، وفتشت فى جيبها حتى عثرت على قطعة من اللبان اشتركت فرقعتها مع نظرات عينيها فى عذاب « بهية » ، وسألت نفسها : « لماذ تزوج أخى هذه المرأة ؟ » لكن الجواب كان حاضرا ، فقد تذكرت الحاجات والشهوات . الحاجة التى ألجأتها هى نفسها إلى الجلوس فى بيتها والتى زوجتها من الحاج « ماضى » والشهوة التى ..

واستغفرت الله ، وحاولت أن تنفى ما دار بظنها عن « عزوز » وهى التى خرجت من وطنها متهمة بريئة .

وعندئذ أفاقت على صوت الزوجة وهى تقول فى تحد مثير :

ـ انت صايمة ياحبيبتى ؟

ـ لا . لكن لماذ هذا السؤال ؟ لسنا فى رمضان !

فردت من خلال اللبانة :

ـ أحسست أنك تريدين أكل « عزوز »

ـ أنا ؟

ـ يعنى أنا ؟

ـ ولا أنت .. أنا .. آتية لأسأل عنك فى غياب أخى .

لأن العكس غلط . وكانت لهجتها مسالمة ، وساد بعدها صمت . لم يكن فى البيت أحد إلا إن كان نائما فى الداخل ، وظهر على وجه الزوجة ملامح قضية مقنعة . وأحست « بهية » أنها على وشك أن تتلقى لكمة فهمت بالخروج ، ولكنها استبقتها وقالت لها :

ـ قولى لى لماذا لاتذهبون إلى بلدكم .. بلغنى أن زوجك من الأعيان ، ومريض أيضا .. وهذه فرصة .. وغدا يموت .

ـ .. ..

ـ آه .. آخ « وتمطت » تشتكى فى دلال :

ـ ولا فرصة هنا .. كما تعلمون .. لكن .. صحيح خرجت من البلد بـ .. لـ .. آ..

وأدركت « بهية » أنه من الضرورى حدوث هذا فودت بينها وبين نفسها أن لو كانت ذلك حقا ، ليتها عملت ما اتهمت به ..

وحين كانت تهبط السلم أحست بالدوار ، والدموع تحجز عن عينيها الرؤية الصريحة ، وتذكرت منظر « بركات » الفزع المبهدل وهو

يطلب من زوجته أشياء يبدو أنها غريبة ، وقررت أن يتعلم ابنها صناعة ما ، فإن دوام هذه الحال غير ممكن .

وفى آخر الحارة رأت الخرابة التى حدثها عنها أخوها فى ليلة شاتية فذكرت مصرع المعلم « خميس » وتمنت لأخيها أن يخرج بالسلامة ، أما هم فإنهم سيعيشون لكنها أحست أن قدرا غير ظالم يتربص لأخيها فقد رأت « عزوز » يملأ مكانه وبدت عليه مظاهرالراحة والمرح والرخاء .

***

والجوع قوة لاتعترف بالقيم . . فأخرجت الأم من مخبأ وراء صورة أخيها شيئا أخذه ابنها وانصرف .

ومشى يقلبه فى الطريق .. كان خاتم خاله الذهبى .. تصوره فى اليد المستطيلة التى طالما قدمت إليهم حنانا قبل أن يبيعه ، وقالت له أمه إنه دسه فى يدها وهو فى المحكمة وهمس لها بما لم تسمعه حين كانت زوجته بعيدة مشغولة بالحديث مع الناس .

الأيام كانت أقوى من قدرتهم والشمس تشرق كل يوم باحتياجات لاتقبل التأجيل ، وحين يستلقى الابن والأم على الحشية بعد بيع السرير كان السقف يبدو عاليا ، نعم ، ولم يكونا يتحدثان كثيرا.. كانوا يخافون أن تغلبهم الدموع .

ولأول مرة فى تاريخ حياة الابن يحس شعور المحاصر أما قبل ذلك فقد كان يحس بإحساس اليتيم والدنيا أمامه ملجأ يحمل لافتة على كل

ركن . أما الآن فقد تأكد لديه أنه لاينتمى إلى أحد ولا إلى وطن ولا إلى أسرة .

ولم يكن يعرف فى هذه الليلة حين دهمته هذه الأفكار أهو نائم أو غيرنائم وكل ماعرفه أنه فتح عينيه فوجد المصباح المعلق على الحائط يلفظ أنفاسه وأمه جالسة على الحشية فى المكان الذى تنام فيه كمن شبع نوما ثم استيقظ . وقام فى صمت فشرب وعاد وجلس إلى جوارأمه . لم يكن قادرا على مناقشة هذا الشعور : « لماذا هو ميال إلى الحساب أوالعراك ؟ » كبقايا الكتائب المهزومة تتبادل الاتهامات فى العادة . وجلس هو الآخرحيث ينام فقالت له أمه :

ـ ارقد ياحبيبى .

فرد فى جفاف :

ـ لا أريد أن أنام ، أريد أن أتكلم ، أنا محتاج إلى الكلام أكثر من حاجتى إلى النوم . فقالت بفتور :

ـ تكلم .. تكلم ..

ـ لماذا خرجنا من بلدنا ؟ لماذا جئنا إلى هنا ؟

وشعرت كأن مطرقة هوت على رأسها ونظرت إليه ثم إلى المصباح الذى كان مختفيا وأتاح لها الظلام أن تتكلم :

ـ هل أنا مسئولة عن ذلك ؟ لقد مرت ثلاث سنوات فهل تستطيع أن تذكرالحوادث ؟ أنا .. أنا ..

واختنق صوتها فلم ترد بعد ذلك . أما هو فرجع إلى ذكرى الليلة



خاتم أخيها .. دسه في يدها وهو في المحكمة

التى لاتنسى والضجيج الذى ملأ الدار والسفر ونظرات خاله إلى أمه حين رآها . وشعر أن صدره يضيق وأنه فى حاجة إلى نسيم الريف وهواء الحقول ، أما هنا فإنه يستنشق هواء مليئا بتراب الفحم .. كأنه أسود .. لكنه مع ذلك يشعر نحو خاله بالحب ، فقط لو أنه عمل شيئا واحدا لكان فى نظره آية للكمال .لو لم يكن زوجا لهذه المرأة لكان أحسن رجل .. وفجأة صدمه شىء فشعر كأنه سقط فى حفرة مظلمة والطريق خال تماما ، وعليه وحده أن ينقذ نفسه ، ورفع صوته فى حركة عصبية قائلا لأمه :

ـ سأسافر إلى أبى .. سأسافر إليه وأسأله عن سر هذا العذاب ، آه .

وردت عليه باللهثان ، أحست أنه لن يرجع إليها إن فعل ، وإذا رجع فبوثيقة من الخزى تدمر أيامها ، وأحست أن الجوع شىء يمكن احتماله .. والموت أيضا ، لكن المخاطرالجديدة التى سيتعرض لها ولدها هزت كيانها هزا ، فتوسلت إليه وهى تتحسس فى الظلام الطريق إلى رأسه :

ـ إن كنت غالية عليك فلا تسافر .. لا .. لا تسافر يا «رضا » سيقتلونك هناك .

وشعر بلوعتها مضاعفة .. لم يكن فى الحجرة نور . وفكرت فى إشعال المصباح لكنها رأت الظلام أحسن .. وأحيانا نحتاج إلى الظلام. واقتربت منه حتى حضنته فسمعت وجيب قلبه وشمت رائحة عرق خفيفه

كان أشبه بشيء تفتحت عنه أكمام الرجولة وضغطت عليه . كان في حسبانها أنه على وشك أن يضيع ، وبدت لها الدنيا صغيرة . صغيرة . وذكرت ليلة عرسها بين هذه الظلمات والحاج « ماضي » جالس على السطح في ليلة مقمرة يحكي لها عن خوازيق السوق حكايات ويضحك في سعادة عاري الرأس ، في جلباب أبيض وهي بين يديه مثل قطة أليفة ، وانتفض الابن بين يديها :

ــ لابد من السفر ، أريد أن أموت ..

ــ خذني معك ..

فنفخ في الظلام ..

ــ لا .

ــ لماذا ؟

فصرخ محتجا كمن لايريد ألا يجبر على قول شيء معين :

ــ قلت لايعني لا ..

فلجأت إلى حيلة الأم :

ــ وتتركني وحدي ؟

ــ لست وحدك ، غدا يخرج خالي .. وافرضي أنك وحدك .. فإنني ..أنا .. آه ..

وعاد يبكي في الظلام ، تتخايل أمامه صوراهمها صورة أبيه على سرير في حجرة عليا ينظر إلى حدود الأرض كأنه خلقها وصور بغلة تثير الغبار على الطريق وعليها حمودة وقد سطعت الشمس فألهبت

وجهه الأحمر ، وصورة والد «حسن » الذى التقط ضرسه فى كفه عقب لكمة من « حمودة » والدنيا التي لاتعترف به ، وصورة « سليمان » .. والشوكة .. وكأن ذكريات هذه الليلة كانت خاتمة المطاف ، فانسحب من تحت ذراعي أمه واستلقى فى الفراش حتى استيقظ على صوت « عزوز » ينادى من تحت الشباك قبل الشمس :

ـ « رضا » .. « رضا » .. هل تريد زيارة خالك ؟ أنا ذاهب إليه اليوم .

فرد عليه بفتور من وراء الزجاج المغلق :

ـ لا .. اذهب أنت .. أنا أيضا أعرف الطريق .

***

وسمعت أمه فى كلماته الأخيرة نبرات شخصية جديدة .

٧

حساب الملكين

لم تكن صحـة الحـاج « ماضى » فى تقدم ولاتـأخر ، كشىء ثابت .. مثل كائن لايجوز عليه الموت . وعقب نوبات الصرع التى تعتاده فيلازم الفراش كان ينظر من الشباك ، وأحس أن الموت بعيد عنه وأنه أيضا غير مرغوب فيه ، ويزحف إلى السبعين فى دار عارية من الحنان وخاوية من الحب .

وتذكر الثور الأبلق الذى خدم فى حقوله نيفا وعشرين عاما وكيف أنه مرض بعد أن أدركه الهرم فعاده البيطرى ولما قهرته الشيخوخة ذبحوه ..

وتحسس ساقيه المملوطتين من الشعر وفخذيه العاريتين من اللحم وتذكر كم حمـل عليهما ابنه « حمودة » . وأخذ يحـسب : كم مرة حملـه ؟ ووجد نفسه يعد .. ألف .. ممكن .. ألفين .. ممكن .. مرات لاحصر لها .

ــ حمله فى الحر وفى ضوء القمر ، وصعد من أجله النخلة فى الظلام ليحضر رطبا ، وأمسك ليلتها بذيل ثعبان كان على أحد

العراجين ولولا الشجاعة لسقط . ومع ذلك نزل وصعد نخلة أخرى من أجل « حمودة » ابن السبعة الأعوام .

وأم « حمودة » تشمئز من ملابس زوجها فلا تمسكها ولاتغسلها . ثم تذكر ماضيا بعيدا ، يوم كان عائدا ببعض المواشي ظهيرة يوم صيف فخرج عليه من حقول الذرة رجل ملثم احتضنه فجأة ونزل به إلى حفرة على رأس الحقل وكفه على فمه في الوقت الذى سحب فيه المواشى رجل آخر وتركوه فاقد الوعى بضع ساعات ، وكتم الحادث حتى لاتضحك منه الناس ، ومع ذلك تسرب بشكل ما .. آه .. لقد تعب ولم ينل شيئا . إنه يريد حتى مجرد أن يصدر أوامر لا تطاع ، يريد أن يتكلم لكنه أصبح بالنسبة لمظهر « حمودة » عورة يجب أن توارى . والذى يحز فى نفسه اليوم هو أفكار الليل ، حينما يرى على هيئة كابوس حساب الملكين بعد أن أذيع بين كل الناس أن الحاج « ماضى » باع أملاكه لابنه « حمودة » وليس لـ « رضا » ولا لأمه فى الأرض مساحة شبر واحد ، وأكد هذا المعنى للحاج « ماضى » « زيادة » الحلاق وكان يومها مستلا الموسى ليحلق له ذقنه ، وأكمل قص القصة من أن بعض الناس يقسمون أنهم رأوا وثائق البيع بأعينهم ، وأن « حمودة » دافع عنه لوجه الله . فإن « الظلم » أحد الأبواب السبعة التى فتحها الله لجهنم . غير أنه أوسع أبوابها ! ثم استطرد وهو يحك ذقنه بالفرشاة :

ـــ هكذا يقول الناس يا حاج « ماضى » ، والله أعلم .. ويؤكد

الحاج « ماضى » عكس مايقول الحلاق ، لكن ملامح طمأنينة وإعراض وإهمال تلازم وجه « منيرة » وابنها « حمودة » .

ويتقلب « ماضى » على الفراش فى الليل ، ويطن من حوله البعوض فى ولولة جائعة وتفوح رائحة المحاصيل ورائحة السماد فيذكر « بهية » وابنها ، ويود لو أنه قادر على الهجرة إلى المدينة إن الحاج « محمود » يحمل إليه أنباء سيئة عن حياة ابنه لكن المبارزة بلا سيف عملية خرقاء ، وهو نفسه يحس أنه كائن تاريخى طالت عزلته عن الناس حتى نسى وجوه الكثيرين منهم . ورجال جيله مات معظمهم ، وعندما كان يموت ند له يدخل عليه « حمودة » فى ملابس العزاء ويخبره كأنه يزف إليه بشرى .. والذين كبروا من الشباب غابت ملامحهم عن ذاكرته ، كأنما لم يعد هو فى حياة الناس أكثر من وسواس فى ليلة أنس .

و« حمودة » قد بلغ الأربعين من عمره اليوم وهويستعد لزواج ترتيبه الثالث فى حياته . كانت زوجته الأولى من اختيار أبيه فلم تلبث أن طلقت ولم تنجب ويبقى « حمودة بعدها فى غنى عن الحلال ! .. أما الثانية فقد ماتت وهى تلد واختنق المولود !.. ويبقى « حمودة » بعدها فى غنى عن الحلال ! .. وهو اليوم بعد أن اتسعت أرضه وكادت القرى المجاورة تنسى ذكريات أبيه بعد أن وضع ابنه دهانا أجمل على الواجهة العائلية القديمة ، فإنه استطاع أن يتقدم لخطبة فتاة من أسرة ريفية عريقة .. يملك أبوها حدائق موالح ، وقتل أخوها منافسا له فى

الانتخابات ، وتزوجت أختها من قاطع طريق . وخالها شيخ قبيلة يستطيع محاربة الحكومة ، وفضلا على ذلك كله فقد قالوا إنها جميلة حديثة السن لم تتجاوز الثامنة عشرة وأنها حين رأت عريسها بطريقة ما يوم زارهم فى بلدهم وأعجبها بعثت بخادمة زنجية ترصدته فى الطريق على بعد ودست فى يده منديل سيدتها المطرز المعطر ! وشاعت هذه الأسطورة فى عزبة « ماضى » كأنها أغنية وبدت السعادة المحفوفة بالغرور على حركات « حمودة » والاحترام والخوف عند الريفيين ليسا معنيين مختلفين . ولم يعد « حمودة » منذ تاريخ هذه الخطبة يركب البغال بل اقتنى فرسا أبيض أكحل العينين كان صهيله يصل فى جوف الليل إلى حجرة الأب ذات السرير الأعجف والقوائم الصدئة .

وكان بعض الأتقياء والتقيات يتساءلون : لماذا يمد الله للظالم فى أسباب النعمة ؟ فيرد عليهم بعض الأشقياء المحرومين بأن النعم قد تكون من عذاب الله . ثم يضحكون من منطقهم هم أنفسهم داعين الله أن يعذبهم فى الدنيا باللحم والفطير والموز .

وترتفع ضحكة من مكان ماخلف النخيل كأنها رد على الحوار ، وتمضى الحياة بطريقة غير مبالية فيها دموع وجوع وأشياء أخرى ،

وينقضى عام على هذا النحو .

يخرج فيه « بركات » بريئا من تهمة التهريب لكنه يعيش مدة غير قصيرة خائفا لا يغنيه الحلال القليل ، وتقوم بينه وبين « عزوز » مشاحنات خفيفة يحجم كل منهما فيها عن السؤال أو إبداء الأسباب ،

ويحس فيها « عزوز » أن معلمه « بركات » عاجز عن طرده فتأخذ الكراهية شكل يشبه التيارات السفلى فى البحار.

لكن موقف « رضا » فى هذه الفترة كان موقف كل الذين يعيشون على الكفاف ، وكانت الحياة حوالى سنة ١٩٣٧ .. قليلة النفقات . والكسب القليل يكفل لصاحبه الحياة بشكل ما ، واستطاع الشاب أن يستقل عن خاله وكان قادراعلى حمل أعبائه بصعوبة ولو أن صاحب المطبعة كان يحبه ويتمنى له أن يشب فى حياته وثبة أكبر ، رآه غريبا بين العمال الضاحكين المرحين شبه منكمش كمن يعانى ألما ، فلما عرف حقيقة حاله بعد أن أنس إليه قربه ودفع به إلى إحدى المدارس الليلية فى الحى كان صاحبها ابن عم له فتقدمت معلوماته ، وأحس « رضا » بلذة جديدة كانت أشبه بمسكن للآلام وعرف أن فى الدنيا طرقا يمكن أن توصل إلى الرفاهية وأحسن طريقة فيها هى تلك التى سلكها أخوه ذلك الذى انتهز فرصة انهيار أبيه وضعف جناح « بهية » فاتخذ من هذا وسيلة لمأساة عائلية .

وكان نجم خاله فى الأفول ، كان كلما لقيه انطبعت على وجهه الأصفر المستطيل المدمن ابتسامة غامضة تحمل معنى المرارة والعجز ويقول له إذا ما خلابه :

ــ هيه .. كيف حالك يا « رضا » ؟ اصبر .. اثبت .. « ويقهقه» معلهش .. واحد منا لم ينفعه مال أبيه .. وواحد لم ينفعه مال زوجته .. « ويقهقه » ويسكت ثم يستطرد :

ـ لكن يا « رضا » ربما كنت أنت مضطرا لاذنب لك فى مصيرك ، أما أنا مسئول عن مصيرى ..

ويطرق مفكرا فى الليلة الأولى التى أحس فيها بانتصار حارس الملكة وسعادته حين منحته الشرف الكبير . وكان المعلم « خميس » وقتها يهذى من جراحه . ويقول بركات فى نفسه : ربما لو لم أفعل هذا ما وقع ذلك من « عزوز » وليس معنى ذلك أنها دقة بدقة .

***

هذه خطابات « حسن » لاتنقطع عن صديقه « رضا » وقد زاره قريبا بمناسبه مولد السيدة ، وكان معه « عادل بن الحاج محمود » ، وحملوا إليه آخر أنباء العزبة ، وأهمها أن والده قد باع أرضه كلها لأخيه ، وأن الناس يؤكدون والأب ينفى ، وأنه يبدو شاردا باستمرار .

وحدث فى إحدى الليالى التى باتها « حمودة » خارج العزبة لأمريتعلق بملذاته أو خطبته أن نهض الحاج « ماضى » من الفراش ووقف فى الشباك يتأمل الدنيا ، وكان بصيص من الصحة خادع يحبب إليه الحركة ، ورأى القمر يلقى نوره على المزارع ، والأشجار تبدو واقفة تتنفس فى هدوء . أحس كأنه محتاج إلى الحب ولم تخطر بباله « منيرة » ولا « بهية » بل اشتهى أن يجوس خلال العزبة التى كأنما خطف كل شبر من أرضها من أرض بعيدة وجمعها بطريقة لا تتصور ». وتسلل نازلا . كان حافى القدمين ، وهبط السلم فلم يقابله أحد ، وكان نور حجرة زوجته خافتا فعرف أنها نائمة ، واتجه إلى

الحظيرة ، كان يخاف البغل والخيل طبعا . كان هذا أقوى من قوته ، وذهب إلى حظيرة الحمير فاختار وركب وسار ، وكان المارون القلائل فى العزبة يكفون عن الضحك أو الكلام عندما يتعرفون عليه ، ودار حول الأرض، ورأى من بعد ارتفاع المبانى الجديدة التى أقامها « حمودة » لمناسبة زواجه ليعادل أصهاره حقيقة ، وبعض طيور الليل تتزاحم على الأشجار فى قتال غريزى ، وأسكره الهواء ونور القمر فظل سائرا ، لكنه خاف أن ينتابه الصرع فيسقط وربما وقع فى الماء فعاد من حيث أتى .. وكانت هذه الرحلة آخر رحلاته قد أقعده بعدها المرض .

ولكنه فى نفس الصيف وفى إحدى ليالى الجمع حددت ليلة زفاف « حمودة » على عروسه الجديدة « زينب » ابنة الأشراف .

ونصب سرادق كبير فى أحد أطراف العزبة وحضرته فرقة موسيقية ومطربون .. وتحول المكان إلى مهرجان هو فى الحقيقة نقطة تحول فى التاريخ ، إذ أنه بقدوم الصباح على « حمودة » يكون قد احتل فى نظر المجتمع الريفى قمة جديدة بعد مصاهرة هذه الأسرة ، وجال فى نفسه خاطر خافت الصوت مالبث أن أعرض عنه ، هو : « لو أن هذا الزفاف كان قد تم بعد موت أبيه » .. لكن مالبث أن وجد الرد : إنه لايفارق الفراش .. والأمر غير مختلف ! . حى ميت ..

وامتلأ الريف بالأنوار، وبدا نور القمر فى المكان فضوليا شاحبا، لايمكن رؤيته إلا على بعد .. على حدود البصر .. على رمال الصحراء، وبرقت بالنور أطراف النخيل والشجر وأبراج الحمام .. ولم يعرف أحد

أحدا . كان الوافدون من جميع الأزياء ، فلاحون بحفائهم وعصيهم أونعالهم الغليظة ، وأفندية ومشايخ وعرب وأعيان وجال الإدارة.. والمهم هم هؤلاء . وتصايح الفلاحون حين رأوا« بوكس » الحكومة : « البيه المأمور » .

وكان «حمودة » يشعر أنه يجتاز خطا تاريخيا ، أما أبوه فكان في القسم الثانى من البناء حيث لا يرى إلا انعكاس النور على الأرض من بعد فقد كان شباكه خلفيا لا يرى الجماهير وتكاثر حوله البعوض يولول فى جوع وكان يحس بإعياء وثقل نفس ، ولم يكن يشعر بفرح ولاحزن ، كان فى حالة تعادل كالتى كانت شعرت بها « بهية » صباح الليلة التى لاتنسى ، حين كانت لاخائفة ولا مطمئنة . وخطر على باله ابنه الآخر ، لقد عرف أنه يعيش عيشة كفاف ، وود لو عمل من أجله شيئا ، لكن نظرة واحدة من « حمودة » أصبحت تشل إرادته ، وعرف أنه مسئول عن تربية هذه المخالب له ، لوأنه قصصها أولا بأول لكان ابنه أنيسا . جاءته هذه الخواطر فى ساعة حساب وصفاء وروحانية ، وتمنى لو عادت هذه الترعة التى منحته هذه الأرض فتوقفت عن التدفق، لكن ذلك مستحيل ، « لعن الله زوجة وزير الزراعة فقد كانت هى السبب ».. هكذا قال فى نفسه . وتخيل أن الترعة قد نضبت نضوب شرايين جسمه ، وعاد التين يحد أرض الصحراء ، إذن للقى الله بقلب غير خائف .. ودمعت عيناه « إن هذه الأرض تستطيع أن تطعم خمسين ولدا فما باله يطمع !! » ..

وظل هكذا يفتش عن المسئول . وبين حين وحين تأتيه فواصل موسيقية كأنها استراحة بين الفصول ، ثم كف عن التفكير واستسلم لشبه نعاس ، وكان هواء الليل قد بدأ يخف ، وعلى الشجر شبه نداوة، وفي السماء صفاء يهدهد السعداء .

وكانت « بهية » في هذه اللحظات تذرف دموعها في صمت وتسأل عن « رضا » في كل مكان . إنه لم يعد حتى وقت متأخر من الليل ، وأخيرا قال لها خاله :

ـ نامي ياسيدتي .. نامي فربما كان في سهرة سعيدة .

وكان يكتم قلقه عنها ، وطلع النهار ولم يعد « رضا ».. فاستبد القلق بالآخرين .

ولم يكونا يستطيعان أن يخمنا أنه هناك ، ظنوه جريحا أو قتيلا وهو في واقع الأمر كان حاضرا فرح أخيه ، دفعه إلى ذلك دافع لايقاوم ، تألف من عدة نوازع منها الحنين والغضب ، وحب الاستطلاع ، وتشجيع الصديقين له « عادل وحسن » حين زاراه في القاهرة ، وكانا يعلمان أن زفة « حمودة » ستكون مثل هجوم يأجوج ومأجوج . وأنه لن يعرف بين الزحام .

وأخذ « رضا » بدلة من صديق له ، وطربوشا ونظارة بذراع مذهبة وسبحة كهرمانية كانت تمسك في ذلك الوقت للزينة لاللعبادة . وجلس في السرادق بين الناس ، بين الأفندية والمشايخ ورجال الإدارة ، وعده أهل العريس من أهل العروسة وعده أهل العروسة من أهل العريس ،

ولم يستطع أحد من الفلاحين أن يعرفه بعد أربعة أعوام وشباب وتغيرثياب ، وتعشى ..

وخرج وجاس خلال وطنه ، مر بالمكان الذى أخرج فيه الشوكة من رجل « بدور » ثم عبر المبانى ، وكانت دور الفلاحين تبدو حقيرة جدا ، منزوية تحت الأضواء مثل شحاذ يلبس الأسمال فى المدينة فأحس « رضا » أن الظلام ستر ، وتسلل بعيدا عن النور . كان يريد أن يرى أباه ، حبا أوحب استطلاع . كان تواقا أن يرى نقطة البدء فى حياته ، ذلك المسئول عن مزاحه يوم تزوج أمه « بهية » .. مثل مسئولية الهاربين من اللقطاء . وكان غير راسم خطة ، وكان لا يدرى ماذا سيقول لمن يقابله حين يسأل عنه ، غير أنه كان مطمئنا إلى شىء واحد ، إلى أن « حمودة » لن يلقاه لأنه إن لم يكن فى المبنى الجديد المنفصل حيث تجلس العروسة فإنه لن يخافه إذا لقيه وإن عرفه سيقول له : إننى آت لأراك فى فرحك . ولابد أن إحساسا ولو زائفا من الروابط سيجعل الأمرفى سلام .

وتقدم أفندى فى زى مهيب ، أسمر مشوق طربوشه على حاجبه ، وتحت أنفه شارب يدل على أن صاحبه مهذب . ورأى النخل وأبراج الحمام فى الناحية الشرقية الشمالية على مقربة من الدار القديمة التى يقيم فيها الوالد وتقدم .. وأحس أن قلبه يدق ، وسأل نفسه عن حال أمه فى هذه الليلة إنه لم يخبرها لأنه لو فعل لحدث أحد أمرين : إما أن تكون معه ، وإما أن تمنعه .

ووجد الباب العمومى مفتوحا فدخل . كان هناك مصباح بزجاجة معلق فى الدهليز الطويل ، ومن شباك مفتوح نحوالحقول كانت نسمة وانية تداعب المصباح فتهبب الزجاجة .. ورائحة الوطن ، حيث نشأ ولعب وتعلم ، وتعذب ونفى .. رائحة لبن ومحاصيل وسماد ونبات ، ورائحة حب ، ورائحة كره ، منبت البذرة الأولى حيث يتمنى كل ريفى أن يدفن . لكن .. أحس بصوت « منيرة » زوجة أبيه يأتى من الداخل ، فوقف فى مكانه وسأل نفسه :هل أنا فى أرض الأعداء ؟ كيف ذلك ؟ وتقدم .. وبطريقة غريزية وجد نفسه يستعد للقتال ، وندم على أنه لم يحمل سلاحا حتى ولو سكينا ، ثم ذكر ثانيا أنه داخل إلى مخدع أبيه . وهل الدخول على الآباء يحتاج إلى السلاح ! كانت سكينة وسلام تملآن قلبه فى هذه اللحظة ، ووجد نفسه على أول درجات السلم ، وكان مظلما فيما عدا نورا ضئيلا يبدد سواد رأس السلم آتيا من الصالة العليا ، وصعد أول درجة فسمع وقع خطوات ، وجمد فى مكانه وتهيأ للقتال مرة أخرى ، لكنه مالبث أن أخذ أنفاسه فقد كان القادم هوالخادمة المسنة التى تقدم لأبيه الطعام عادة ، وكان عمش عينيها قد زادته الأيام فتنحنح لتشعر بوجوده ، وقال لها بصوت حاول أن يجعله أجش غليظا مهيبا :

ـــ اسمعى يابنت .. أنا طالع لعم الحاج « ماضى » فوق ، هل معه أحد ؟ فقربت من وجهه مصباحا صغيرا وهتفت بفرح كفرح الأطفال :

ـــ أهلا .. هل أنت الدكتور رمزى اللى زرته السنة الماضية ؟

فتمتم بكلمات من الممكن أن تكون لا ، ومن الممكن أن تكون نعم ، وقادته الخادمة إلى فوق وتركته يدخل ونزلت .

ورأى الابن أباه ..

كان شبحا هزيلا يبمث على الرثاء ، وأحس «رضا »أنه غيرقادر على الحقد حين رأى الحاج « ماضى » تحت نور مصباح صغير فى حجرته نفسها التى تطل على الحقول ، وبعض أكياس البطاطس والذرة، مرصوصة تحت السرير كأنها « رصد »، وجلس على كرسى مجاور ، فنهض الحاج وجلس فى فراشه وقال مرحبا :

ـ أهلا أهلا بالدكتور .. هل أنت مدعو فى الفرح ؟

ـ أهلا ياعمى .. نعم مدعو فى الفرح ، لكنى لست الدكتور ، لقد أخطأت الخادمة .

ففارقت الفرحة وجه الطامع ، وبدا الاكتئاب على عظمتى خديه الناتئتين اللتين تلقيان ظلهما على الوجه ، وقال له :

ـ أهلا.. لكن .. من حضرتك ؟

ـ أنا ابن الحاج « مسعود » تاجر المواشى .. صاحبك القديم .

فهتف الحاج « ماضى » فى حنين وبقوة من يسترد ذاكرة ضاعت منه :

ـ آه .. رحم الله والدك .. وأنت من فيهم ؟

ـ أنا .. أنا .. محمود .. لعلك لاتذكرنى ، لكنى أعرفك من كلام والدى عنك ، وأنا .. موظف الآن فى محكمة المركز .. كاتب ..

ولما عرفت الأمر أحببت أن أراك ، لأننى فى الحقيقة أرى أبى ..أبى .

فهتف الرجل فى هستيريا :

ـ آه .. أبوك .. الله يرحمه .. أين هو .. ياليته كان موجودا .. الله يرحمه .

وبكى .. ومسح دمعة بكمه ، وبكى على نفسه ، علي الذكريات والحرية ، على الدنيا الطليقة التى كان يجوب أركانها الأربعة .

وقال الضيف :

ـ لا تبك يا أبى الحاج .. لاتبك .. هذه حال الدنيا ، لكننا لا ننساك .

ـ مع الأسف .. أنا نسيتكم .. فيكم الخير .. عقبى لك تتزوج مثل ابنى « حمودة »

ـ هل أنت سعيد ؟. ضرورى .

فتردد قبل أن يقول :

ـ أ.. لا أعلم .. أنا سعيد وغير سعيد .. إنه صاهر ناسا طيبين .. لكن . آ .. القوة مختلفة.

ـ أنا غير فاهم .

ـ إنه يقدر شيئا واحدا ، يقدر حالة الوفاق ، ولم يقدر حالة الاختلاف .. هل أنت فاهمنى ؟

ـ نعم فهمت .. لن .. آ .. أليس لك أبن آخر .. هل ..

فلم يتركه يكمل ورد مختنقا بالدموع :

ـ لى .. لى ابن آخر ، لكنه ليس هنا .. فى مصر .

ـ فى الجامعة ؟

فتأوه قبل أن يقول :

ـ كان جائزا أن يكون فى الجامعة ، لكن .. أنا الذى منعته . آ .. لكن .. هى إرادة الله .. إنه موظف الآن .. ليتنى كنت معه .

وأحس « رضا » أنه سينكشف لأن الدموع كانت تقهره ، وصار عاجزا عن الكلام ، لكن الأب أعفاه من عواقب الموقف حين ظل يقول :

ـ لو كان أبوك حيا يامحمود .. لو كان معك الليلة .. ورأى هذه الأرض ..

وتحرك نحو الشباك ونظر إليها ، وعاد ليكمل :

ـ لو رأى هذه العزبة .. لو عرف تاريخها .. إنها عذبتنى .

ـ ولماذ عذبتك ياعم الحاج ؟

ـ لقد جعلونى أبيعها .. فى المنام .. لا أدرى كيف .. كل الناس يقولون لى : إنى بعتها .. وأنا لاأعلم بالخير .. آه لو تعود إلى القوة ، لو كنت فى الخمسين لجعلت كل شىء على هواى ، لكن .. فات الأوان ياحضرة الباشكاتب .. فات الأوان يا ابنى .

ودخلت الخادمة بكوب من الشربات قدمته للضيف ، وفى الوقت الذى كان فيه مترددا فى اعلان اسمه ، لقد أحس أن والده قد فقد كل سلاح ، وأنه انضم فوق ذلك إلى قائمة المغلوبين .. فملأ منه عينيه قبل أن يرحل ، ومد يده ليسلم عليه لكنه فوجىء بأن الحاج « ماضى »



عد إلينا مرة أُخرى .. لقد ذكرتنى بـ « رضا »

جذبه نحوه وقبله في وجهه ، وأحس أن قبلة الرجل كادت تتجمد وأنه على وشك أن يعيدها ، وأن نفسه تخفق في سرعة واضطراب فانخلع منه ، وشد على يده مودعا :

ـ أراك بخير ياعم الحاج .. سلام عليكم .

ـ عد إلينا مرة أخرى ، لقد ذكرتني بـ « رضا » .

ـ رضا ؟

ـ الذي يعيش في مصر . « وأخذ يتكلم كمن يولول » آه .. ذكرتني به .. آه .. رحم الله والدك .. آه .. ياليته كان موجودا لأشتكي إليه أشياء كثيرة ..

ـ ياليته .. كان موجودا .. شفاك الله .

***

وبعد أن وجد نفسه خارج الدارأحس بظمأ إلى الدموع لايقل شهوة ولاضرورة عن ظمئه إلى الماء ، فمشى بين النخيل يسمع نشيج نفسه .

وكان برج الحمام على مقربة منه ينبعث منه هديل غامض ، فيه لوعة فراق أو حرارة لقاء .

ولما وصل إلى الطريق الرئيسي على الترعة كانت الأنوار كلها نحو الجنوب ودور الفلاحين أقرب إليه . وأغنية عاتية عذبة ذات حماسة تتردد من فم مغنية مع نغمات « الأكرديون » حركت حناجر الفلاحين بالصياح وقلب « رضا » بالألم .

خيل إليه أنه في حلم ، فسار نحو الشمال حتى أمسى كل شيء

بعيدا ، وعلى يمينه الترعة التى منحت والده النعمة .. يتدفق ماؤها بسرعة .. أسود فى لون البن ، وود لو ينهى حياته ، أحس كأن هذه اللحظات وقت صالح للتوقف ، فماذا لو رمى نفسه في الماء ؟ كان تعيسا غاية التعاسة .. ومرتاحا غاية الراحة .. إنها راحة القنوط . وشربت مشاعره هذا المزيج العجيب ، فمنحه رغبة فى الموت .

ووقف على الترعة .. وفاحت من شجرة على الشط الثانى رائحة أزهار الفتنة التى عرفها منذ الطفولة أيام كان يجمع الصمغ والقرظ من هذه الأشجار .. أشجار السنط ، ويحبس دودها فى علب كأنها ديدان الحرير . وكان الماء مظلما فى المكان الذى وقف فيه وقد انعكس نور الفرح على المجرى بعد مائتى متر ، وخيل إليه حقيقة أن الموت فرصة . وهل هناك أحلى من أن نموت على أرض الوطن ؟

وأخذ يتخيل فى فوران عاطفى كيف أنهم سيعثرون على جثته فى الماء وأن أخاه سيقيم مثل هذه الليلة لتلقي العزاء لمجرد المظهر ، ثم يتنفس بعدها الصعداء . وقد علم مايكنه الآن قلب أبيه .. لكن هذا ليس مهما .. المهم هى تلك التى تنام فى القاهرة يمزق القلق قلبها الطيب .

« قلبها الطيب » ؟ سأل نفسه هذا السؤال .. وتمنى أن يرى رجلا يدعى « سليمان » ، ونزه أمه عن كل ريبة ، لكن شيئا فى أعماقه ظل جامدا يرمز إلى اللوم ، و « حمودة » .. ماكان أبهاه فى الملابس الصوفية التى صنعت فى إنجلترا .. كان يختال مثل الطاووس بطربوش

داكن ، ووجه مستدير مكتنز كأنه نقش على قطعة نقود .. نعم .

ـ لكن هل له في هذه الأرض شيء إلا الذكريات ، وحتى « حسن وعادل » رآهما ولم يتكلم ، وقد رأياه وهما بين الفلاحين الجالسين القرفصاء أو المتربعين على الأرض ، أماهو فقد كان ضمن الجالسين على الكراسي .

وسار نحو الشمال ، وعطفت عليه نسمة تحمل رائحة الأرض المروية ، فاستنشق ملء صدره ، ومسح بقية دمعة ، وارتاح وواصل السير مصمما على السفر ، وكانت محطة السكة الحديد على مسيرة ساعة على التقريب والصحراء على يساره ، والترعة على يمينه . ثم مالبث أن اندمج فى الليل والظلام ، وكانت أصوات الطلقات النارية التى تشق السكون من بنادق المدعوين تتناهى إليه فى الوقت الذى كان فيه يعبرعلى المقابر .. « المقابر التى سيكون لكل سكان العزبة حظ فيها مائة فى المائة » ، ولكنه عاد فسأل نفسه : هل من الضرورى أن يدفن هنا .

وذكر أباه .. وذكر أمه .. ثم انعرج نحوالغرب ليسلك الطريق المؤدى إلى المحطة .

وفى الظلام وهو يطل من نافذة القطار كان يرى .. من بعد أنوار العزبة ، ويسمع طلقات البنادق .

٨

دورة الفلك

وبعد مرور سنتين أخريين وقعت حوادث أكثر عمومية . شعر المجتمع المصرى فيها بكل طبقاته كأن سورا تاريخيا عنيفا يحيط بالناس بنته يد عاتية أخذت تنقض بنفسها بناء هذا السور.

وكان هذا فى خريف عام ١٩٣٩ ، حين أخذ الناس فى كل مكان يتكلمون عن قيام الحرب الثانية ، ولم يكن أحد خائفا فى مصر ، بل كانوا يذكرونها على أنها الزلزال البشرى الذى سيغير صورة الدنيا ولكن .. بالضرورة .. بعد شىء من التدمير.

وأحس « رضا » بالحزن ، لأنه علم بوفاة والده مساء هذا اليوم ، حين تقابل مع أحد زملائه فى المدرسة المسائية ووقفوا يثرثرون ، فأخبره أن رجلا من بلدهم يبدو أنه قريبهم قد مات أمس الأول ، وأحس « رضا » أن للأمر علاقة به ، فذهب مع صديقه حيث وجد جريدة تاريخها من يومين ، وجلس يقرأ نعى أبيه .. أبيه الحاج « ماضى » ولم يكن اسمه بين الأبناء ، ولا الأقارب ولاالأصهار ، فعلم أن هذه

حرب أخرى أعلنها عليه أخوه ، وخرج من بيت زميله ومشى يضرب في الشوارع . لم يذهب إلى أمه ولم يخبرها ، بل ظل ماشيا حتى جلس على قهوة صغيرة منزوية في شارع منصور ، حيث أمامه خط سكة حديد حلوان ، ولم يكن في هذا المقهى إلا نفر قليل لا يزيدون على عشرة كلهم أفندية .. كانوا يتكلمون بصوت خافت وهم يلعبون الشطرنج ، وشعر أن المكان صالح لامتصاص الحزن ، وأخذ يفكر ، ماذا يريد أخوه ؟ لا بد أنه حصل من والده على وثائق تثبت ملكية الأرض كلها له، وأطرق . ومر من أمامه قطار يتهادى على مقربة من المزلقان فحملق في النوافذ ، وكانت بعض أضواء البيوت المطلة على الشارع تلقى نورها على القضبان . وعاد يفكر . بماذا وكيف يحارب « حمودة » ؟ وأبوه ؟ .. آه .. لقد ثوى في المقبرة الصحراوية ، والترعة التي تسقى الأرض على بعد نصف كيلو متر من قبره . ماذا قال في نفسه وهو يموت ؟ وفكر ثانيا .. لو استطاع أن يقاضيه فكيف يستولى على أرضه ؟ إن له أصهارا وأتباعا .. أصهاره قطاع طريق . دفع مهرا كبيرا لبنتهم ليضمن في المستقبل أن يأكل ـ بحمايتهم ـ حق أخيه ، فضلا عن أمثال سليمان .. أبو داوود هذا الذي اكتراه لهتك عرض . وصفق بيديه بغير صوت ، ونظر إلى القضبان المعدنية الممدودة على « الفلنكات » لتحمل ثقل القطارات ، وفكر في الحروب التي يجتازها الناس . وأنه هو الآن مثل دولة ضعيفة فرض عليها الحرب . هل من الممكن أن يستسلم ؟ وماذا يعمل في قضية قوة القانون

لاتنصرها ؟ . ماذا يعمل إذا قال القانون « لا » فى خلاف بينه وبين أخيه ؟ .. هل يحتكم للسلام كما فعل اليوم هتلر .. « يا ويلاه » .. ثم ماذا يصنع وقد دخل اليوم على العشرين من عمره ؟ . إنه الآن يشغل إحدى الوظائف فى مطبعة « م » بعد أن نال قسطا من التعليم الثانوى الليلى . وأحس بعد أن قرأ « بحكم مهنته » أن قانون الغابات لايناسب كل الميول ، هو وإن ناسب رجلا مشهورا استطاع أن يدق على العالم المطمئن بابه ليوقظه فى رعب ، فإن الواقع ليس صوابا دائما . لكن .. ما قوله فى حمودة ؟ ذلك الذى سلبه كل شىء حتى صلته بأبيه ؟

ووجد نفسه يطلب « شيشة » . إنه يريد شيئا يحرك صدره من الداخل كحركة الشهيق والزفير ، ولذ له أن يتأمل النار الجاثمة على الحجر والفقاقيع المحبوسة فى الزجاجة . وأخذ ينفخ وإلى جانب منه نفس الناس الذين يلعبون الشطرنج فى هدوء :

ـ ملك ؟

ـ انتهى .. دور جديد .

***

وعندما عاد إلى البيت وجد اثنين بانتظاره هناك ، كانا هما «حسن » و « عادل » .وقابلهما باسما فى سهوم فاحتضناه وبكيا. وعندما لاح لهما أنه يأخذ المأساة مأخذا أقل مما تصورا عاد إليهما شىء من هدوء النفس ، وقدمت « بهية » لهما سمكا تفوح منه رائحة

التوابل ، فعادت إلى « رضا » ذكرى نصيحة خاله ، حين كان يحذر أخته أن تعود إلى الريف .

وألقى الشابان إلى صديقهما بالقصة ، وعرف « رضا » أن كل شيء هناك مثلما توقع ، وأن الأب قد وقع عقد بيع بما يزيد على نصف الأرض لابنه « حمودة » وبذلك آلت إليه الأرض كلها .

وشرد الشاب يفكر فما عساه قد وقع ، لقد رأى أباه منذ سنتين ، وكان كل شيء يدل على أنه لم يبع أرضه ، فهل باعها بعد ذلك ؟

ولكن حقيقة الأمر التي وقفت عندها ظنون الابن الصغير هو أن البيع تم قبل ذلك في الفترة التي كانوا يترددون الأب فيها .. « منيرة » و « حمودة » . وفي إحدى نوبات الصرع والأب غائب عن رشده أخذا بصمات إبهامه ، وشهد شهود ظنوا أنهم يكتمون كل شيء .. ولم يكن الحاج « ماضي » يعرف الكتابة ، وعندما أفاق شم رائحة الجاز التي مسحوا بها أصبعه ليزول الحبر ولم يفهم شيئا . وبعد ذلك جاءت الحلقة الأخرى من المؤامرة فطردت « بهية » وابنها .

وخرج الشبان الثلاثة يجوبون شوارع القاهرة على سبيل الترفيه ، وقال « حسن » باهتمام :

ـ سأدخل الجندية بعد قليل .. ربما أكون قريبا منك يا « رضا هنا .. وربما تمتد إلينا الحرب .. فأموت .. لكنني على كل حال أشعر أن القدرسيجمعني بـ « حمودة ».

فسأله عادل :

ـ وماذا ستعمل فيه ؟

أجاب على البداهة :

ـ سنكون في حرب .

وكان كل شيء في العزبة خلال هاتين السنتين يبدو غاية في الضخامة . فقد شعر « حمودة » بقوته بعد المصاهرةالجديدة وكان يتحدث عن أصهاره كمن يباهي بمخزن سلاح ، وخافه الفلاحون الذين يتفصدون عرقا في حقوله ولايأخذون ثمن هذا . وهاجر أحدهم ذات مرة إلى عزبة أخرى فقابله في طريق السوق من كسر ذراعه بهراوة . وكيف يعيش فلاح بذراع مجبورة ؟

وكان هذا الرجل عما لـ « حسن » أيضا .

أما حقيقة « حمودة » فقد كانت أبعد شيء عن كل هذه المظاهر .

وكان الخفير الجالس على مقربة من بيته يسمع عندما تقدم الليل شجارا بين الزوجين ، وكثيرا ما كان صوت الزوجة يرتفع بالنشيج أو الشتائم ، وبمرور الزمن استطاع الخفير أن يعرف صوتها الطرى الشاكى بين مائة صوت ، ودفعه الفضول إلى صوتها أن يسمع دائما . وكانت ليلة من ليالي الصيف ، فانبعث بعد نصف الليل شجار الزوجين ، وأخذ الخفير يجمع أشتات الكلمات والحوادث من قديم وجديد حتى عرف أن المشكلات التى يدور حولها الصراع ثلاث : أهمها النفور الجنسى بينهما ، فقد كان لها جسم حمامة ، وحين يرى الفلاحون منظر بغلة يركبها حمودة في النهار .. يضحكون .

وكانت زوجته تحس أن العلاقات بينهما مائدة يأكل عليها طرف واحد ، ولذلك اشتد نفورها . وتمنى هو أن يكون النفور موقوتا لأنه أحبها بكل قواه ، وكان يحلو له أن يجردها من ثيابها ليراها بعينيه كأنها دمية ، وكانت هى تذوب خجلا وضجرا ، ولرغبته الدفينة فى أن يكون نفورها موقوتا كان يضعها كل ليلة موضع التجربة . فيقع الشجار، ويرتفع صوتها الطرى الشاكى فى سكون الليل .

أما المشكلة الثانية ، فهى إحساسها بعدم التكافؤ ، ليس فى المكانة الاجتماعية ، فهذا يجىء فى المقام الأخير.. لكنها كانت تشعر أن كلا منهما قد خلق من طينة ، والفرق شديد بين شفافية الزجاج وجفاف الفخار . وعلى الرغم من أنها ريفية لم تشهد المدينة إلافى القليل ، فقد كانت تحس بأنه يخاطبها بلغة أحط من أن تفهم .. كانت أحيانا ترى فى نظرات الأبقار رقة مأنوسة لاتتوفر فى نظراته .. رجلا حديديا شهوانيا . ضحكت وقلبها يبكى عندما حكى لها الخرافة التى أذاعها الفلاحون فى عزبته من أنها بعثت إليه بمنديلها المعطر رمزا للرضا والترحيب ، وكان فى قرارة نفسها أيضا معنى يكاد يكون تعاليا فهى مادامت لم تجد فيه تلك الصفات التى تحلم بها فى الرجل فقد طبقت عليه قانون الريف . فوضعت نفسها فى مكان أرفع ، أليس هو ابن تاجر المواشى ، ماأعظم الفرق بين أبيه وأبيها صاحب حدائق الفاكهة ؟ وكان « حمودة » يعبدها ، ولم يكن يستطيع أن يعبر لها عن حبه إلا بالطعام والغريزة . أما ملابسها فقد بدأت تمقتها ، لأنها أيقنت

أن في لبسها اهتماما به .

وتسأتي المشكلة الثالثة : فقد مر عامان على زواجهما دون أن تحمل ، وكان المرحوم والده يسأله في بعض لحظات الصفاء عن هذا فلا يحظى بالجواب . وخاف قبل أن يموت ألايرى لـ « حمودة ولدا .. لكنه مات ولم ير ، ولم يكن هذا خوفا على « حمودة » بقدر ما هو خوف على بقائه هو وحفظ الميراث في الذرية . وسمع الخفير ذات ليلة شجارا ، ارتفع فيه صوت الزوج بطريقة هستيرية لاتقدر العواقب وهو يقول : أنا.. أولاد .. أنا .. عرفت نفسي من زمان .. أنت . وو . وو . ج .. م .

وتدخلت الكلمات ، ثم انقطع الصخب وشمل السكون وارتفع عواء ذئب خلف أسوار التين على تخوم الصحراء وأشعل الخفير سيجارة، وعند الصباح أخبر زوجته « بدور » بما سمع ، وكانت تتردد على بيت « حمودة » كتابعة تصطفيها الزوجة وتختصها بسرها وتدخل معها الحمام عندما تغتسل .

وجلست « بدور » ذات صباح تمشط للسيدة شعرها الأسود . السيدة مسندة رأسها إلى صدرها ، وكانت أذنها قريبة من فم « بدور» فهمست فيها بكلمة مترددة :

ـ متى ؟ . متى يا سيدتي ؟

ـ ماذا يا بدور ؟

وأمالت رأسها ونظرت إلى فوق حتى كاد أنفها الروماني المتميز

فى وجهها الصغير يلمس خد « بدور » وسألتها وعيناها مغمضتين :

ـ ماقصدك يا بدور ؟

ـ أدعو الله أن أحمل ابنك مع دستتين من الشمع إلى ساكن هذا الضريح ولى الله ويكون الشمع على حسابى .

وتنهدت ، وأخذت تعمل المشط فى شعرها وهى مستسلمة كقطة بيضاء لكن شحنة من الأسى ملأت نفسها ، وساد الصمت لم يملأه إلا صرير المشط ثم قالت « زينب » :

ـ أنا غير مصدقة أن « حمودة » قد ماتت زوجته الأولى فى حادث ولادة .

فاجابتها بالباطل :

ـ لم تكن حمى نفاس . إنها حمى عادية ..

ـ آه .. قولى لى يا بدور .. أليس فى العزبة نساء من عودى ؟

ـ فى كل الدنيا .. لماذا ؟

ـ هل خلفت واحدة منهن ؟

فضحكت بدور وهى تضفر لها شعرها :

ـ هل تريدين رؤيتها ؟. غدا تأتى إليك وخلفها ستة من الصبيان.. من أوهمك بهذه الخرافة ؟

فلم تجب ، وزمت فمها الصغير فى إصرار فتاة من أسرة عريقة .

***

غير أن الحب والقلق تصارعا بلا هوادة فى قلب « حمودة » ..

كان واثقا أنه غير عقيم فقد دفنت إحدى العذارى جنينا منه تحت جذع نخلة ، وكانت « بسدور » تذكر سوابقه وتعرف كل ما يعرفه أخوها « حسن » ، وتربط بين ماحدث لـ « رضا » وأمه وماحدث لهما أيضا .. جمعتهم كلهم صفة المعتدى عليهم ، وباتفاق مع أخيها وزوجها .. عملت على تعكيرصفر حياته ، فجلبت من حيث لايشعر إحدى الغجريات لزوجته فتعلقت بالسحر والشعوذة ودخلت حالة نفسية مضطربة أشبه بحالة الحرب ، وعندما افصحت لها الزوجة بأن البقاء معه لم يعد يهمها أقنعتها « بدور » أنها تدافع عن أنوثتها وأن كلمة « العاقر » لاتتناسب مع جمالها .

واستيقظ الزوج فى الصباح ذات يوم على أنين زوجته فألفاها شاحبة صفراء .. وأخبرته بوجوم ودموع أن كل أملهم قد ضاع ، فقد أسقطت جنينا ابن شهرين .. وكان كل شيء مجهزا فى الحمام بتدبير « بدور » والغجرية التى تجلب للنساء فى القرى كل ما يحتاجونه فى عالم الذرية .

ورأى « حمودة » ذلك الشيء بعينيه ، لكن حدث والشمس آخذة فى النهوض أن رأت « زينب » فى عينيه وعلى ملامحه عكس ما كانت تتوقع ، لم يبد خوفا من أجلها بل احتقن وجهه الأحمر وولاها ظهره العريض ومشى يتبختر. وانزوت تبكى وتفاقم الأمر بالنسبة إليها فى ليلة أخرى بعد أسبوع حين كان أحد الفلاحين يحكى هذه القصة على أنها حادثة عامة يعملها النساء حين يردن خداع الأزواج .. وما أسهل

الحصول على جنين أرنبة مذبوحة .

وقهقه الفلاح .. المتوارى فى الذرة وهويحدث زميله وكأنه لايقصد أن يسمعه « حمودة » ثم استطرد الفلاح .. نعم أرنبة ..

ثم يوضع ذلك فى الدم .. هاء .. هاء .. وتسبك الحيلة على المغفلين يا مغفل ..

ورد عليه زميله : والأغرب من هذا ياشيخ المغفلين .. أن الغجر يتعهدون بتوريد البضاعة ، من كل نوع ، يا ساتر ..

ورجع « حمودة » وقد ملأه الشك ، وتقوضت القنطرة التى تربطه بـ « زينب » . فلم يعد يتوددها .. وأهاج هذا حنقها واحتقارها فاتسعت الهوة .. ووصلت شكواها إلى أمها.. وانتقلت من أمها إلى أبيها .. ومن أمها إلى زوجة خالها ومن زوجة خالها إلى خالها .. حتى حدث فى إحدى الليالى أن خرجت من بيتها غاضبة فخلا البيت .

***

أما فى القاهرة فقد كانت الأمور بالنسبة لمن هناك تسير سيرا لابأس به ..

عادت أيام « بركات » أكثر هناوة عندما اكتشفت زوجته سرقة بعض مصوغاتها فى صباح اليوم الذى انقطع فيه « عزوز » عن القهوة . ولما سألوا عنه فى مسكنه أخبرهم شريكه فى المسكن أنه أخذ متاعه وسافر إلى السويس لأنه سيشتغل هناك . وبدا على الزوجة غيظ لايوصف .. غيظ التى خدعت عن حليها وأمانتها ، وعندما صرخت فى

غضبها أنه يجب أن تبلغ الشرطة هدأ « بركات » من ثورتها .. فقد ختفى الغريم وأفاقت الزوجة .

بدأت نقود الحرب تملأ الأيدى ، وكثرت الهجرة من الريف إلى المدينة . والناس يتحدثون عن الأخطار والغنى المفاجىء فى وقت واحد ، ويدأ ميزان القيم والنقود يتخلخل ..كل هذا و « رضا » فى وظيفته الصغيرة كأنه ينتظر شيئا مجهولا ، ينتظره فى تجلد وتحمل فى عمل بالنهار وقراءة بالليل وعزلة وعيشة على الكفاف فى بيوت الأوقاف التى بدأت ترتفع حولها فى سرعة وتطاول بيوت التجار فى كل ركن وتسكنها كل الطبقات إلا الموظفين وإلا من تركوا وظائفهم وعملوا مع الجيش الإنجليزى . وكان « رضا » يقابلهم فى بعض الأحيان فيرى مظاهر النعمة تغطيهم مثل ريش الطاووس فينكمش فى الملابس المتواضعة .

وعندما يذهب إلى القهوة الصغيرة فى شارع منصور كان يستمع إلى أخبار الحرب من الراديو وأفواه الناس ، ويتأمل القطارات الغاصة والمدينة التى سيهددها الظلام كما غطى الإسكندرية.

وكان « حسن » يزوره بين آونة وأخرى فى ملابس الجيش ويحكى له عن الحياة التى يحياها ويزوده بمايتناهى إليه من أخبار « حمودة » .. وعلم بحوادث زوجته معه فأدرك أن الأيام المقبلة ستحمل أحداثا لايستطيع التكهن بها ..

وكان قد بلغ من العمر مرحلة يمكنه فيها الحكم على مقدراته ،

فألقى نظرة فاحصة على مافات تحت تأثير ماتناهى إلى الناس عن قرب انتقال أخطار الحرب إلى منطقة الشرق ، وبعد أن انهارت قوى كانوا ينظرون إليها نظرة تقليدية .

وتحت تأثير الحديث عن الغارات وقوافل الطائرات التى اكتسحت أوروبا ـ كان « رضا » ليلتئذ يحملق إلى السقف ، فرأى عروق الخشب التى تحمله وقد طال بها العمر، وسأل نفسه : أليس من الجائز أن يموتوا تحت الأنقاض ؟ وكانت أمه شديدة الخوف ، تحلم بالعودة إلى الريف ، من أجل هذا كله عمل « رضا » حسبة حياته وسط حياة الذين كتب لهم أن يكونوا أقرباء له فوجد خاله « بركات » ضحية نجحت إلى حد ما فى إنقاذ ضحية أخرى .. فى إنقاذه من الغرق ولو أن خاله لايزال يمشى مبلول الملابس يرتعد من الخوف وتقلبات الجو ، فقد أصيبت زوجته عقب فرار« عزوز » بانهيارعصبى ، أما «بركات » فقد كان شديد الهدوء ، منحته تعاسة زوجته استغراقا يشبه الغيبوبة اللذيذة ، ولم يكن متأففا .. لأن « عزوز » اغتاله بالطريقة التى اغتال بها هو المعلم « خميس » .

وحسد خاله على حاله . فقد أصبح من الذين لايبالون ، طائفة إيمانها بالقدر مثل كفرها به متساويان يمحو أحدهما الآخر.. يسب السماء ويستغفرها كل ربع ساعة .

أما أمه « بهية فقد كانت شديد ةالإحساس بالغربة، لم تتواءم مع المدينة منذ دخولها ، و وكم تمنت أن تكون متسولة فى العزبة ولاتكف

عن طلب العودة إلى عمتها فى قرية أبيها ، إنها تريد أن تقف على السطح فترى أبراج الحمام فى عزبة « ماضى » ولو أن الذكريات لم تغب عن قلبها ..

كان حنينها لا يقاوم ، وحين أفزعتها أخبار الحرب رأت الدار الريفية رمز السلام ، وكان ضجيج الترام فى شارع الخليج يؤرقها فى الليل ، فتحلم بنباح الكلاب فى القرية حيث يسود السكون ويرقد الظلام .

وأحس « رضا » أن أمه أصبحت دون مستوى الحوادث وأنه لايجد من يبثه شكواه . وعندما كان يرى علامات البراءة على وجهها وزغب الإهمال على شفتها العليا كان يذكر الليلة التى لاتنسى . فيقفل الباب فى وجه الذكريات وينظر إلى حياته المتوقفة المتحركة كالزورق المربوط فى الميناء وقت العاصفة .

كان يحس فى هذه الأيام أنه جزء من العالم ، وأن كل شىء ضيق عليه ، وكما أن العالم يغيرثيابه بطريقة دموية ليرتدى ثوبا جديدا لايعلم سعته ولونه إلاالله فإن « رضا » يحس نفسن الإحساس .

إنه فى حاجة إلى أصدقاء .. وزملاؤه فى العمل كأنهم غرباء ، يتكلمون بمزاح وبطريقة تشى بالرغبة ـ عن أغنياء الحرب وفتيات الليل والكسب الحرام الذى بدأ يغرى الناس ، أما هو فكان يشعر بالاشمئزاز من الحالتين ، من الحالة التى هو فيها والحالة التى يتحدثون عنها .

وود لو أن الله منحه ثلاثة أشياء ، صديقا مثل « حسن » فى

وفاته وعلى درجة أكبر من التعليم ، وإنسانة يحبها وتحبه .. ثم ..عودة إلى أرض وطنه .

كان الوقت متأخرا من الليل حين سخر من نفسه ومن أفكاره ، وأيقن أنها أشبه بالمطامع ، ، وأخرجه من جوه المتأمل طرقات جاره النجار على باب حجرته فى الحوش وهو ينادى بصوت مخمور على زوجته النائمة المرهقة طول النهار ..

وتصور « رضا » ماذا سيحدث فى الحجرة الأخرى عندما يدخل هذا الرجل على المرأة المسكينة.. ليطالبها بأن « تحمله بين ذراعيها » وعاد يناقش القضية ..

لكن .. لماذا لم يدركه الرضا الذى أدرك قلب خاله ؟ و لم يعرف الجواب فلم يستطع أن يعرف أن خاله قد نفس عن الظلم الذى لحقه بأن ظلم هو إنسانا غيره ، حين سطا على زوجة « خميس » .. ولعل هذا هو نفس السبب الذى لم يحمل رجلا ريفى النشأة مثله على أن يبطش بـ « عزوز » ..

وعلى ذكر المرأة جعل يتخيل أول فتاة ستكون فى حياته .. وتأوه .. وجلس فى فراشه كأنه نسى زاده وهو مسافر. كان قد بلغ من العمر الواحدة والعشرين ، وفوجىء بشىء عده غريبا ، فوجىء بأنه لم يعرف المرأة حتى الآن ، فى أى صورة من الصور .

وتذكر القرويات وبنات الأحياء الوطنية ثم بنات المدارس ثم فتيات الليل يعترضن طريق الجيوش التى بدأت تملأ العاصمة ، وأن لكل رجل

على الأرض امرأة على الأقل .. وإنه لم ينل شيئا .. فأحس كأن شيئا يهوى فى أعماقه يسقط كشرفة منزل قديم كالذى يسكنه ، وأن رجلا مثل هتلر ربما لم يشن الحرب على الدنيا إلا لمثل هذا الإحساس ، ولافرق بينهما أن الآخر قادر على أن يغضب بثلاثة ملايين من الجنود كما يغضب أخوه « حمودة » بخميسن رجلا من الفلاحين .. على حين أن « رضا » يغضب برجل واحد هو « رضا » نفسه ..

وتنهد .. ونظر إلى أمه الراقدة جنبه على السرير .. بينه وبين الحائط تحت لحاف أحمر قان .. وسأل نفسه : « هل تحس أمه أيضا أن الحياة قد ضاقت عليها وأنها فى حاجة إلى توسعتها بطريقة ما ؟. » ذلك مؤكد ..

ولذلك لم ينم حتى اتخذ قرارا ، هو أن يتيح لأمه الفرصة أن تعود إلى الريف فقد مضى خمس سنوات على خروجهم ، وعندما تكون فى قريتها.. أعنى قرية أبيها .. ستكون أمور لا يدريها ولاتدريها. وعند عمتها التى تسكن مع زوجهاوحده فى الدار الريفية ستقضى بعض شهور ، وبقية الحوادث علمها عند الله .

وكأنما ارتاح لهذا القرار، فانطوى بجانبها تحت الغطاء المشترك ، وهمس بصوت لم تسمعه أمه « آه ياأماه !! » .

٩
الرحيل

شعر الذين يسكنون بيت الأوقاف بعد حوادث التصدع الأخيرة بمشكلة الفراق ومشكلة السكن ، فبعد أن اتسعت الهجرة إلى المدينة وتوقفت عمليات البناء فضلا عن البيوت التى تتساقط فإن هذا كله خلق أزمة فى المساكن .

وكانت هذه الحادثة سببا فى الرحيل مرة أخرى إلى حى جديد بعد ما اهتدى السماسرة إلى حجرة كانت مهملة فى الأصل .. على سطح عمارة من ستة طوابق تطل على ميدان فم الخليج .

ولم تكن الحجرة مسكونة ـ من قبل ـ كانت زاوية السطح المسورتؤلف جدارين من جدراتها وحائط من « البغدادلى » كان قائما يحمل السقف ، ويبدو أنها كانت حظيرة دواجن هجرتها الأرواح فعادت خرابا ، وعندما سأل السمسار عن « مكان خال » خطرت لصاحب العمارة فكرة جديدة هى أن يضيف حائطا خشبيا رابعا للجدران القائمة ويفتح بابا ويرمم السقف ، ثم يؤجر الحجرة .

وعلى الرغم من أن الصفقة تبدو مريحة بالنسبة لـ « رضا » فإنه بعد أن استأجر هذه الغرفة وصعد إليها أحس أن عالما جديدا ـ كعالم ما بعد الحرب ـ بدأ بابه ينفرج بالتدريج ، ومع إحساسه بالخطر لارتفاع المسكن ووحدته فى أيام لاتؤمن فيها الغارات ، شعر بسعادة لا توصف .. فالشباك الشمالى يطل على شارع قصر العينى وعلى الميدان والحديقة العامة ، ومستشفى الإنكلستوما وفرع النيل الذى يفصل الميدان عن النيل وحديقة شريف وتربط بينهما « المعدية » . وكان من الممكن أن تمسك سقف الحجرة إذا وقفت على كرسى لكن الارتفاع العام الذى بنيت عليه لم يجعل ساكنها يشعر بأنها منخفضة .. نوع من الوهم ! وأحس « رضا » وأمه بعد أن صعدا إلى فوق أنهما قادران على تحمل الجوع فى مثل هذا المكان .

وودعه خاله كأنه راحل عن المدينة ، وقبله ، وترقرق الدمع فى عينيه .

وبعد أن نظم كل شىء فى المسكن هو وأمه خرجا إلى السطح . وكان القمر فى هذه الأيام سيد الموقف بعد أن طليت مصابيح الشوارع وزجاج الشبابيك بالطلاء الأزرق ، لذلك بدت رقعة السطح التى تلمع تحت القمر رائعة المنظر ، ورأوا تلال المقطم ناحية الجنوب ، وتناهى إليهم صخب المقاهى والسكارى فى « البوظة » القريبة ، وفى الميدان يمر الترام مثل كائن تاريخى يمشى على بطنه ، والحديقة ذكرته بأرض وطنه عندما فاحت منها مع نسمات نوفمبر شذى الأزهار ورائحة

الخضرة ، وترامت أشجارها حتى شاطىء النيل فى جلال ضخمه الليل.

وكانت العمارة ذات جناحين كأنهما توأمان .. بينهما ممر لايزيد عرضه على ثلاثة أمتار وعلى مقربة من نهاية الممر سلم لكل جناح ، والنوافذ المطلة عليه تتلاقى فى تقارب .

وكانت هذه العمارة هى الحد الفاصل بين حى فم الخليج الوطنى بكل مقوماته وبين سكان شارع قصر العينى الذين يعتبرون من الطبقة الوسطى . لذلك ترى فى حديقة الميدان مربيات وعربات أطفال وأمهات مثقفات وغلمانا شرداء وبين الطرفين أبناء الجزارين والحلاقين وتجار الجلود وخدم المستشفيات .

لذلك فإن « رضا » شعر بالنقلة ولم يشعر بالغربة فمن ناحية الجنوب رأى الشعور المصبوغة والأسنان الذهبية لنساء فى النوافذ ، وسمع اللهجة الممطوطة المرصعة بالأيمان ، ومن ناحية الشمال أو بالأحرى فى الجناح المقابل له كان يرى فى النوافذ نساء بلهجة أنيقة يغلب عليها الأمر والاختصار .

وعندما طرقت عليه بابه بعد عدة ليال يد مستعجلة تعجب من يكون الطارق . إن أحدا لم يعرفه هنا بعد . وحمل نفسه وفتح فرأى شبحا عريضا فى بذلة عسكرية عرف فيه « حسن » فعانقه وهو لا يزال يلهث قليلا من طول السلم .

وأخذا يتفحصان المكان معا من جديد كأنهما دخلاه من توهما . وجلس « حسن » وكان أول خبر زفه إلى صديقه أنه تعلم فى الجيش

قيادة السيارات ، واستطرد ضاحكا : ومنذ الحادثة التى قتل فيها أحد الكلاب الضالة وهو لايزال تحت التمرين لم يقتل نفسا .

كانت « بهية » فى ذلك الوقت فى الملحق فى الركن الآخر من السطح حيث يقع بناء على شكل مايسمى دورة مياه . كانت تغسل الثياب فى هذا الوقت وتعد طعام العشاء . وعندما وصل حسن إلى هذه النقطة من حديثه عض على شفتيه ، وهز رأسه كمن يؤمن على فكرة وهمس كمن يحلم : « لم أقتل نفسا يا « رضا » .. صحيح » .

ونظر صديقه إلى وجهه وبهت ، فقد كان حسن كمن يتكلم عن ثأر ، يجول فى قلبه بغض وحب بطريقة تشبه جولان الماء فى بطن الأرض . كان يحب « رضا » ويكره أخاه . وعندما رأى بوادر الطمأنينة على وجه صديقه أحس أنه أهل لكل نعمة ، وكان يطلب له المزيد فى صمته وإطراقه ، ويتمنى أن يكون هو صاحب عزبة « ماضى » الكبيرة .

ــ ما لك ياحسن ؟

ــ أفكر فى همومى ..

وضحك « رضا » فى الوقت الذى كان « حسن » يتذكر كيف أنه عندما دخل الجيش لم يعتبر من الأميين ، وأن الذى علمه هو صديقه ، وتذكر كتابه الذى بلعه الماء يوم رمى به « حمودة » . والنور الذى ينبعث من مسكنه فى العزبة والعزبة فى ظلام ..

وخيل إليه أن « رضا » لو كان شريكه لاختفت نصف الآلام ولو

كان مكانه لاختفت الآلام كلها .

كانوا يشربون الشاي ويثرثرون ورشفات «حسن » ترتفع على أفكار « رضا » ، وكان السهوم يتزايد على وجه « حسن » وهو يشرب مما حمل صديقه على أن يقول له عابثا »

ـ هيه .. هل تفكر في قتل نفس أخرى ياحسن ؟.

فهز رأسه وهو ينظر نظرة فهم « رضا » منها أنه يقصد غيرما في ذهنه .. فأمسك عن الكلام وحول الحديث إلى ناحية أخرى ، غير أن « حسن » كان يعلم أشياء لم يشأ أن يخبر بها صديقه ، كان يعلم أن العلاقات بين « حمودة » وأصهاره قد ساءت إلى أبعد حد عندما التقت امرأة مجهولة من عزبة « ماضي » بامرأة مجهولة من بلد الزوجة من سوق المركز فحملت واحدة منهن إلى « حمودة » أنها سمعت من يقول على لسان أصهاره : إن « زينب » كانت لاتليق أبدا بابن سمسار مواشي . وسمع أهل « زينب » من المرأة الأخرى أن « حمودة » لن يعيد إلى بيته امرأة منتنة الفم والعرق ، فضلاعن أنها عاقر ..

وانفتح باب التقاضي فانسد باب الصلح وتبودلت الشتائم والمعارك عند المحكمة بين الأتباع .

ورشف « حسن » آخر جرعة من الشاي ، وعاد يقول :

ـ آه .. يخيل إلي أنني سأقتل نفسا .. سأقتل حيوانا على كل حال ..

لكن « رضا » الذى فهم أنه ربما يلمح إلى « حمودة » قال وهو يضحك :

ــ يظهر أنها « موضة » .. القتلى فى كل مكان من الأرض .. ألم تسمع عن غارات الإسكندرية ؟

ــ نعم ، فقدت فيها صديقا .. كان معى فى الفرقة وسافر فى إجازة ليرى أهله فمات معهم تحت الأنقاض ..

وسكت ثم سأل باهتمام :

ــ لكن لماذا اخترت هذا المكان العالى والغارات الحقيقية فى طريقها إلى القاهرة ؟ .

ــ أنا لا أخاف من الموت .

فرد كأنه ينهى الحديث .

ــ ولا أنا .. أيوه .. لقد علمتنا الحرب أن نفعل كل شىء بلا مبالاة وأن يتحالف الناس مع أعدائهم لكى يغلبوا أعدى أعدائهم كما فعل الإنجليز مع الروس .. « وضحك » .

فنظر « رضا » إلى الظلام فى السماء . وكانت ذوائب الأشجار والنخيل تبدو من خلال الزجاج المضبب ، وقال فى سهوم :

ــ حسن .. أنا أفهم قصدك .. أنت تقصد « حمودة » أنا.. لن أستطيع أن أقبل هذا ..لن أستطيع أن أتحالف مع أحد ضد أخى .. إننى أبحث عن أشياء كثيرة لحياتى وربما أجد بعضها . إننى لم أضيع شيئا وحقوقى التى ضاعت أشبه بحقوق المريض أو الطفل أخذوها وهو

فى حالة لايستطيع معها الدفاع .. وأنا .. أتخيل أننى يوم أموت سأدفن حتما إلى جانب أبى فى المقبرة الصحراوية .. أبى الذى لم يحبنى قط .. ربما كان لايكرهنى .. لكنى سمعت أحد الذين يترددون على المطبعة يقول :

« ليس هناك فرق كبير بين الأب الذى يكره أبناءه والأب الذى لايحبهم جدا » .

عندنا فراش عجوز .. يده لاتكتب وعقله مستنير .. يكره الإنجليز والألمان معا ، وعنده طريقة بسيطة لإجلاء أى أجنبى يمكن تطبيقها فى أى بلد وحتى على عزبة الحاج « ماضى » قالها لنا وهويسخر من موظف يعرفه استقال ليشتغل مع الإنجليز ويغرق فى الكسب الحلال والحرام :

« لو أن كل مصرى خاصم الأجنبى غير المرغوب فيه فى بلده لانتهى الأمر. تصوروا مثلا أن كل الذين فى هذه المطبعة لايقولون لى عليكم السلام عندما أقول لهم السلام عليكم .. فهل من الممكن أن أعيش فيها يوما؟ » .

وضحك حسن من حنجرة غليظة واستطرد « رضا » يقول :

ـ هناك خطة أخرى .. ستعرفها عما قريب .. سآخذ بها أرضى .. ويومها يا أبو على سأبنى لك دارا على الترعة ومنظرة لها أربعة شبابيك وسأنير دور الفلاحين من بيتى أنا .

فرد حسن مداعبا :

ـ أنت تتكلم بطريقة مرشح الانتخابات ..

ـ نوع من الحنين .. «سأفتح لك هذه النافذة لتشم من الجنينة رائحة أرضنا .. قف .. هل ترى ؟! انظر ..

ثم وقفا يتنفسان هواء المساء فى عمق وصمت وأمل .

***

وكان الناس يتحدثون فى القاهرة عن غارات الإسكندرية حتى حدث ذات مساء أن رأى سكان القاهرة الغارة الحقيقية .

وفى الصمت الذى يمزق الأعصاب فى انتظارطلقة المدفع أو انفجار القنبلة أخذت « بهية » تعد أنفاسها . كانت إزاء تجربة لايمكن احتمالها بالنسبة لمثلها ، أما « رضا » فقد كان غارقا فى خيال مضحك كأنه كاريكاتير .

رأى فيه إيطاليا عريض الفك يحمل على ذراعه قيثارة ليتسول بها الشهرة فى التاريخ . وألمانيا مخمورا بشعر ناعم ومفرق أبيض شرب فى « حانة البيرة » عشرين زجاجة ، ووقف يهذى بالمجد والعدوان .

وأضاءت الحجرة فجأة بوهج أحمر فرأى وجه أمه وهى تصرخ وتنزل من على السرير ، وقد رفعت ذراعيها فوق رأسها كمن يتقى شيئا بين طلقات المدافع ، كانت تتناهى أصوات أطفال من الجناح المقابل وأوامر محمومة بإغلاق الشبابيك أو إطفاء الأنوار ، وعندما احتدمت الطلقات وقرقعت السماء انطلقت « بهية » إلى الخارج مذعورة ، فلما رأت منظر السماء عادت إلى الداخل . خيل إليها أن حريقا شب فى الفضاء

فتذكرت بيوت الفلاحين المحملة بالحطب .. ومن خلال شعورها المحموم طافت بخيالها صورة الحقول الخضراء ، فأخذت أسنانها تصطك . فلم يجد « رضا » بدا من أن يهبط بها إلى أسفل ، وشجعهم على ذلك أن السلم مسقوف . وكان الطريق طويلا كأنه بلا نهاية . وعند باب السلاملك الأيسر كان ناس يدخلون فدخلوا مع الناس .

وفى الصالة المحبوسة التى تشبه المخبأ أوى بعض سكان الأدوار العليا .. وفى سقف الصالة كان يهتز فى قلق مصباح عار طويل السلك يلقى نوره فى عدم مبالاة على الجالسين .وتعلقت الأعين كلها برهة بتلك المرأة الريفية الحافية القدمين ، والتى يجلس إلى جوارها شاب لاشك أنه ابنها ، وكان حافيا كذلك ، ولم يكونوا يتكلمون فى شيء أكثر من التفرقة بين أصوات القنابل وأصوات المدافع . وفى الفترات التى يسود فيها السكون يتأمل بعضهم بعضا .

وعرف « رضا » أن هذه الفتاة من أصحاب السلاملك ، لأنها قامت بسرعة واهتمام ملأت كوبا من الماء من الداخل وقدمته إلى إحدى السيدات فشربت وسقت بنتها الباكية ، وكان « رضا » ساكن الملامح .. هادىء النفس . فأتاح له هذا أن يدرك تفاصيل ما يدور حوله ، ونسى أمه التى بدأت تألف المأساة عندما رأت أنها ليست وحدها ، وجعل يتأمل الفتاة ، كانت تغدو وتروح وكأنها تطلب من الحاضرين أن يكلفوها بشيء ، وفى قميص ليلى واسع يهتز فى داخله جسم خصيب ، لها لهجة ظامئة تثير النشوة ، كأن فى صوتها بحة أو أثر جهد من

كلام طويل .

وابتسمت للمرة الأولى فى وجه طفل فى فترة الهدوء التى تسبق صفارات الأمان ، ورأى « رضا » ابتسامتها كنجم وحيد فى السماء المطموسة . وأخذت الطفلة من أمها وانسربت بها نحو الداخل ، ونادتها السيدة بعد قليل فعرف رضا » أن اسمها « ثريا » ..

ولم يدر لماذا خفق قلبه لاسمها .. وجعل يتأمل كل شيء حوله ، فرأى على أحد الجدران لوحة كتب عليها بخط كوفى : « الله نور السموات والأرض » .

وبطريقة طبيعية ربط بين الاسم والآية .. ثم مالبثت « ثريا » أن عادت بالطفلة وفى يدها بعض الحلوى والابتسامة الواسعة تكاد تصب النور على وجه الصغيرة ، فأحس « رضا » أن بين الأسرتين صداقة ، ثم جعل يخمن ، أليس من الجائز أن تكون مخطوبة أو محبوبة . وتنهد ..

وسمع الحاضرون انفجارا بعيدا ، فسرى فيهم القلق وقالت « بهية » بلهجة تنم عن الخوف « لماذا يحاربوننا ونحن لانحارب ؟ نحن لانريد الحرب مع أحد » .

فسرت بسمات خفيفة على بعض الأفواه مصحوبة بنظرات إشفاق فى الوقت الذى وضع « رضا » فيه يده على كتف أمه وكأنه يحميها ، وفى اللحظة ذاتها كان يغمزها لتكف عن الكلام . وأقبلت عليها « ثريا » فى هذه اللحظة وكأنها لاترى غيرها .. وقالت لها :

ـ لاتخافى ياماما .. لاتخافى ياماما .. إنهم يضربون الأهداف وهى بعيدة .

ـ وليس فيها سكان ؟

وضحك بعض النسوة .. وبردت أطراف ابنها من الخجل ، وردت « ثريا » قائلة :

ـ فيها .. لكنهم إنجليز .. تعالى معى إلى الداخل .

وأمسكتها برفق من يدها التى تمسك بها ابنها ، فأصبحت يدها فى كفين ولم يكن بين كف « رضا » وكف « ثريا » إلا مسافة أصبع واحدة ، وكانت نظراتها اللينة تخاطبه برجاء أن يدعها تدخل ، فوافق مقدرا أن أقل مكسب هو أن تثرثر أمه بمخاوفها فى حرية بعيدا عن الناس إذا انفجرت قنابل .

ـ معها يا أمى ..

ونهضت أمه .. ومن عينى « ثريا » السوداوين القلقتين لمعت نظرة امتنان ووضعت ذراعها على كتف الأم وسارتا إلى الداخل .

وأحس « رضا » بعد عشر دقائق أنه لم يعد غريبا فى هذا المسكن ، وحملق فى الآية المكتوبة بالفضة على رقعة سوداء « الله نور السموات والأرض » فأحس بسكينة مثل التى تغمرنا فى المعابد عندما ندخل للشكر على نعمة لم تكن منتظرة . أحس بفرح فى نضرة الزهر وحيوية الراقص تشمل كيانه وكأن نصفه هناك فى الداخل مع « ثريا ».

وود بينه وبين نفسه ألا تنطلق صفارة الأمان ، وأخذ بعض الجيران



وبطريقة طبيعية ربط بين الاسم والآية

وقد اطمأنوا نوعا يتسحبون إلى مساكنهم ، أما هو فقد حاول أن يعيش في هذه اللحظات كأذن سمعت كلمة الحب للمرة الأولى

وهلل الصغار عندما انطلقت صفارات الأمان ، وهب « رضا » واقفا ، ولم يلبث أن رأى أمه قادمة من الممر المقابل و « ثريا » تحدثها بصوت خافت كأنها تعرفها من زمن .. كأنها تحكي ذكريات. ووقفت المرأتان أمامه والناس ينصرفون ، فمد يده إلى الفتاة بطريقة خالية من الإرادة ليسلم ، فأحس عندما أمسك يدها أنه ضغط قطعة من القطن ، أو كفا ليس فيها عظام ، أما أمه فقد قبلت رأسها على الطريقة الريفية في الاعتراف بالجميل ، وابتسامة ندية على فم الفتاة احتفظت عينه بصورتها كما تختزن حفنة من النور .

***

وكان الوقت لايعد متأخرا عندما صعدا إلى فوق ، عبرا السطح في الظلام ، فسمعا وسوسة المدينة . كان الناس يتحركون وفي الجو رائحة بارود ، ومن خلال النوافذ تبدو أنوار بنفسجية .

ورقدت الأم في الحال ، أحست أن كل مفاصلها تتوجع ، وأن روحها منطفئة ، وبعد قليل كانت تحت سلطان نوم مفزع .

أما « رضا » فقد وقف في النافذة ينظر إلى الدنيا التي غمرها الظلام ويراقب دقات قلبه ، إنه قد رأى هذه الفتاة من قبل ، يذكر ذلك .. رآها مرة تعبر الميدان في يدها حقيبة كتب ومرة تقف عند بائع الجرائد ، ومرة في الترام ، وتخيل الليلة أنها أحبته وشاركته حياته ،

ثم قالت له ذات مساء : « اذهب فاقتل حمودة » لتأخذ أرضك .. بيدك أو يد غيرك ، أو قالت : « اترك هذا كله وتعال نعيش بلا متاعب .. فإن « هتلر » و« موسوليني » يريدان أن يكونا حزامين حول الكرة الأرضية ، مثل مدار الجدى ومدار السرطان . خطوط وهمية .. فلا تكن مثلهما » .

وعندئذ سيقول لها : « سأفعل فإن وجه الحقيقة هو ماتريدينه نحوى وتنهد .. « ياإلهى .. ألم يشعر « حمودة » بمثل هذا الشيء؟. إنه شيء عذب » .

ونظر إلى قاع الشارع . كان بعيداً جداً ، شريط الترام غائر فى أرضه يلمع تحت نور مصباح المحطة ، وعلى مقربة من دائرة النور ظهر رجلان يترنحان ، ثم وقفا متساندين فى انتظار الترام . كان يبدو من ضحكاتهما أنهما سكرانان ، وسمع الصخب يأتى من « البوظة » ، فذكر أنات الجرحى تحت الأنقاض فى الإسكندرية . ولم يدر لم رأى الضحك والبكاء فى هذه اللحظة وكأنهما صنوان ، أو ضدان أصلهما واحد . وارتفعت ضحكة من أحد الرجلين عند المحطة بعد أن بدأ الأول فى أغنية :

« بالتبر لم بعتكم بالتبن بعتونى » .

« بى .. التبرى . ما . آ .. آ ..بع . بع . بع . هاهاها . »

وتابع « رضا » ضحكاته ، وضحكات أخرى تتناهى من « البوظة » كفرحة مختلسة فى عالم مهموم .

وقطع كل ذلك على حين غرة صفارات الإنذار مرة أخرى .

فسكت كل شيء كأنه خنق ، واختفت الأنوار البنفسجية وانطلقت الأنوار الكاشفة تمسح السماء مسحا ، وبدا السكرانان مثل فأرين فى مصيدة بجريان تجاه المستشفى وأحدهما يهتف :

ـ يخرب بيتك يا « هتلر » « يخ خرب .. بيتك .. يا .. يا .. هتلر » .

ويرد الثانى كأنه بطانة :

ـ قبل بيتك ياموسولينى ..

١٠
للحب بقية

ورأى « ثريا » فى الصباح التالى .

وأحس فى هذه المرة أنه رآها حقيقة وأن علاقة تقوم بينهما ، وكأن ثوبها الصوفى الأرجوانى الذى تلبسه اليوم لم تلبسه إلا بعد رأيه ..

كانت فى طريقها إلى ميدان الطيبى وهو فى طريقه إلى محطة الترام فى الشارع الرئيسى .

وفجأة غير اتجاهه ومشى خلفها ، وخامره شعور أنها تحس بوجوده ، فقد كانت تنقل خطواتها بتردد ملحوظ ، وتحرك رأسها كأنها تغالب نفسها أن تنظر إلى الخلف ، وحذاؤها الخالى من الكعب يلمس الأرض بتردد كأنها تمسحها قبل أن تلمسها ، لكن خطوتها لاتخلو من الرشاقة .

ونظر إلى مزلقان السكة الحديد القريب ، وتمنى أن يقفل ، ولم يكد ينتهى من فكرته حتى سمع شيئا يسقط على الأرض ، لقد انفتحت

حقيبة الكتب التى تحملها ، وانتشر كل ما فيها من كراسات ، وأسرع إليها وقلبه يدق ، ولم يبد فى عينيها أنها فوجئت به . وردت تحية الصباح وتركته يجمع الكراسات ويعيدها إلى الحقيبة . وفى هذه اللحظة أقفل المزلقان حتى تمر القطارات فوقها بين خليط الناس والعربات ، والشمس لينة تغالب سحابا أبيض قريبا من الأرض أحس « رضا » حلاوتها مع أول لمسات الحب ، ورأى قوامها أصغر مما رآه ليلة البارحة وهومحشور فى ثوبها القصير وشعرها المجعد مرجل إلى الوراء مثل شعر غلام لم يبلغ حدود الرجولة .

ووقفا لحظة لايتكلمان فى الوقت الذى كان فيه صفير القطارات يأتى من بعيد ، لكن ملامحها المتوددة قالت كلمات لا تحصى .

ولما أرادت أن تخرجه من الصمت حركت شفتيها كأنها تقول شيئا . فسألها كمن فاته أن يسمع فاتسعت ابتسامتها وقالت له :

ـ أنا الذى أقول ؟!. قل أنت .

ـ أنا متشكر على عنايتك بنا ليلة أمس ..

فنظرت إلى بعيد .. ربما إلى السحاب أو أعلى المبانى كمن يتذكر شيئا نسيه ، ثم قالت برقة :

ـ ولماذا لم تنزلوا ثانيا ؟.

ـ آه .. هذا شىء يطول ، وأردف بضحكة : شىء لاينتهى طبعا ، إلابانتهاء الحرب ..

ثم سادت فترة صمت قالت بعدها :

ـ هل يضايقك هذا ؟

« ولعقت شفتها قبل أن تكمل » .

ـ لو أن الوقاية من الغارات تتطلب الصعود إلى فوق فهل كان يضايقك أن تراني عندكم ؟!

واتسعت ابتسامتها فتكورت على خديها تفاحتان . وشعر أنه مثل السكارى الذين رآهم أمس ، وان اختلف نوع الخمر ، وتسلط عليه الإحساس بالموقف حتى نسى ما قالته فسألها من جديد :

ـ نعم ؟ .. ماذا تقولين ؟

فأعادت قولها . فدنا منها قليلا كأنه يريد أن يلمسها وهمس :

ـ تصعدين إلى فوق ؟! معقول ؟!

فأعرضت عن جوابه .. كأنها تذكرت أنها تسرعت وسألت بعد صمت :

ـ وكيف حال ماما ؟

ومر القطار فغطى بضجيجه على رده ، ثم انفتحت الأبواب وتدفق الناس والعربات فى فوضى وهما سائران جنبا لجنب ، ومد يده فأخذ منها الحقيبة فسلمتها بعد ممانعة ، فارتاح . وكان طبيعيا أن يسألها عن عملها وتسأله عن عمله بعد أن اختفت دلائل الاضطراب الأولى لأول لقاء بين اثنين فعرف أنها مدرسة بمدرسة البنات ، وأنها تخرج فى هذا الميعاد ثلاثة أيام فى الأسبوع .

وعند باب المدرسة أعطاها الحقيبة وواصل سيره فى اتجاهه إلى

شارع الخليج ليأخذ الترام إلى المطبعة . وعادت إليه ذكريات كثيرة ورأى الأشياء الغالية فى حياته فى عدة خانات تتتابع فى وضوح لاستقبال شىء جديد يكاد يعطر القاهرة ويحل فى دنياه كل لغزغير مفهوم .. الحب ؟

***

وعندما أقبل الليل كان جالسا إلى النافذة يترقب شيئا حبيبا فى الوقت الذى كانت أمه فيه تدعو الله أن يكفيها شره .

كان متلهفا إلى صفارة الإنذار لينزل . وامتد الليل ولم يحدث شىء فسهر يثرثر مع أمه . إنها لم تر خاله « بركات » منذ أسبوعين. إنها تريد أن تسافر إلى عمتها لتقيم هناك بضعة أيام . إنها تحس آلام المفاصل خصوصا فى الركبتين ودفء قاعات الريف خير دواء لأمراضها . هكذا تعتقد .

وأخذت تتوجع ، ولسبب غير مفهوم انخرطت فى البكاء . وانطلقت عدة قذائف من المدافع المضادة دون أن تنطلق الصفارات ، فمسحت الأم دمعها ، وأبدت هلعها ، وخرج « رضا » إلى السطوح يتفقد الموقف ، فإذا دلائل الغارة على الأفق تنبثق من أرضه فى عدة نقط .

الأنوار الكشافة مطبوعة على السماء مثل سيوف اخترعها العلم فى القرن العشرين .

ولم يكن هناك شىء مفزع فمشى « رضا » متجها إلى السور

حيث يقع تحت بصره الميدان والنيل والحدائق وانسحبت الكشافات من السماء فساد ظلام وصمت متوتر وأحس برودة الليل فبدأ يوحوح وجاءته ضحكات من قاع الشارع عرف منها أن سكارى البارحة فى طريقهم إلى البيوت ، وارتفع الغناء فى اللحظة التى سمع فيها نداء أمه ، فذهب إليها فإذا بها مستعدة للنزول . وفى أثناء هبوط السلم عادت المدافع إلى العمل فارتفع صوت الأم بالدعاء على « حمودة » كأنما هو الذى أشعل الحرب ، وأحس « رضا » بارتجاف يد أمه وهما يهبطان فى الظلام كمن يغوص فى شىء لا أعماق له :

ـ ينشف ريقك ويسود طريقك يا « حمودة » يا ابن « منيرة » .

وكادت تنكفىء فأخذها بين ذراعيه ، وسمعها فى هذه اللحظة تناجى الله كأنها لمسته .. أن يجعل مقبرتها فى عزبة « ماضى » وبكت :

كانا لا يزالان يهبطان الدرجات ، وشعر الشاب فى هذه الوهلة بشعور جديد بأنه ما دامت الحياة عرضة لأن ينهيها شىء تافة فلماذا لا يقدم على الموت فى سبيل شىء عزيز .. أليس من الجائز أن يموت بشظية وهو على السطح ؟!

آه .. الموت برصاصة مسددة أشرف من الموت بشظية طائشة .. جازاك الله يا « حمودة » .

وعندما طرق باب السلاملك كان وجه « ثريا » أول وجه قابله ، ورأى علامات الترحيب في عينيها الفاترتين ، ولاقت أمه بذراعها

واحتضنتها مثل غلام صغير ، ثم دخلت بها إلى المطبخ حيث الدفء والأمان ، وجلس « رضا » فى الصالة ينظر إلى المصباح العارى . والآية المكتوبة ويترقب عودة « ثريا » من لحظة لأخرى .

وعقب غارات هذه الليلة تعرف على بقية الأسرة ، على الأب الأسمر ، الربعة ، العريض الكتفين ، ذى الشارب الطويل ، وزبيبة على الجبين ، والذى يشتغل سائق قطارات ، ويباهى فى الدنيا بأشياء ثلاثة .. يعددها فى بساطة وفخار : قوة نظره وحرارة قلبه ، وجمال « ثريا » وحسن تربيتها ، وبعدها ابنتان هما « علية وجميلة » يذهبان معا إلى المدرسة ، أما الأم فقد كانت امرأة ودودا ، قليلة الحيلة ، كان والد « ثريا » يزحزحها بنظرته عن مكانها إذا ما شاء ذلك .

وسهر الأب يتكلم بقوة ويسيطر على زمام الحديث وكانت خفة روحه تنسى جفاوة طبعه وجهاره صوته ، وكان يضحك من أعماق صدره ويرمى برأسه إلى الوراء وهو يقص عليهم تفاصيل معركة نشبت بينه وبين عدة جنود من الإنجليز فى محطة الخطاطبة يوم احتك به أحدهم وسخر من شاربه الطويل فيحمل عم « جابر » الإهانة على أنها مداعبة، لكن اثنين من زملائه انضما إليه وأخذا يزغزغانه وهما يضحكان ، ثم تحسس أحدهم عنقه الغليظ وكتفيه وأبدى إعجابه ، فى الوقت الذى تقدم فيه الثالث وأمسك شارب السائق محاولا أن يقص بعض شعرات على سبيل التذكار .

ووقفت القصة قليلا لأن عم « جابر » استغرق فى ضحك عميق ،

وكانت « ثريا تضحك وهى خجلة وتود أو والدها غير مجرى الحديث ، غير أن « رضا » لمح عذوبة الروح المشتركة بين الفتاة والأب وإن اختلف الطبع باختلاف الظروف ، وأشعل الأب سيجارة وأخذ يدخن ثم أكمل القصة .

شعر يومئذ أن الرجال كلهم أهينوا وأن شوارب المصريين جميعا أمانة فى عنقه ، وأن المسألة مسألة شرف ، وأقسم أنه تذكر فى هذه اللحظة قصص كل الفتيات اللاتى خطفن بأيدى الإنجليز من شوارع المدن وأنه هوسيتحول بعد قليل إلى فتاة مخطوفة .

وقام الأسطى « جابر » واقفا ومثل بذراعيه كيف احتضن الإنجليزى يومئذ ، أحس أن ضلوعه تطقطق ، ثم أمسكه من يد ورجل وأخذ يضرب به زملاءه .

وراعه أن الضحك ارتفع من أفواه بعض الجنود وأسرع أحد الضباط إلى المعركة . فأفهمه الأسطى « جابر » ماحدث وقدم إليه المقص الذى أخذه من الجندى ، ومن حسن الحظ أن الضابط كان بشارب طويل فبرطم فى وجه الجنود ، والشرر يتطاير من عينيه .

وصمت « جابر » ثم قال لأول مرة بصوت خفيض :

ـ شعب يعجبك .. لكن .. عيبنا .. حكامنا .. تتعدل ..

ـ كل آت قريب .

فعاد الرجل يقهقه ويقول . وقد انتفخت أوداجه :

ـ تصور .. لو كنت انهزمت فى المعركة .. أليست معركة شرف؟!

عمرى ماتحملت الظلم يا أستاذ حتى من أعظم عظيم ، هل تعرف نتيجة السكوت على الظلم ؟

ـ قل لى ..

ـ مثل نتيجة السكوت على البلهارسيا ..

وكان يشير بيده إلى الشارع وهويقول عباراته الأخيرة حيث يقع أمام النوافذ مستشفى البلهارسيا المشهور ..

***

أحس « رضا » أن هذه الأسرة تعيش حياة متسمة بالبساطة والقوة والإيمان وأن الصفاء الذى يسيطر على بيتهم خير دواء للقلب الكسير .

وأحس مرة أخرى أن عليه واجبا قد تخلف فى أدائه ، هو أن يقابل « حمودة » . لماذا لا يقابله ويطلب منه حقه بصوت عال ، ويسأله فى شجاعة : « بأى حق باع نصيبه من الأرض » ؟!

وكانت هذه الأفكار تتوارد عليه وهو فى المقهى الصغير فى شارع منصور ، والليل لم ينزل بعد ، وأخبار هزائم الإنجليز تنتقل من فم إلى فم .

ومر قطار يحمل جنودا من مختلف الأجناس المحاربة من الذين ملأوا القاهرة ، ورآهم « رضا » مطلين من بعض النوافذ فتذكر حكاية عم « جابر » وابتسم لعدة معان ذكرها فيه ، صراحته وجرأة قلبه وقوله أن عيبنا حكامنا ..

ومر القطار يزفزف ، وانبعثت من الراديو أغنية لم يكد يستغرق فيها حتى رأى أمام عينيه شخصا عزيزا جدا وقف أمام باب المقهى وهو يبتسم وكان هو « حسن » .

وجلسا يدخنان الشيشة ، كان « حسن » فى عطلته الأسبوعية وفى بذلته العسكرية ، والجهد والإعياء باديين على وجهه ، وتحدث مع « رضا » عن قرب انتهاء خدمته وعودته إلى القرية وعن المتاعب التى قد يضمرها المستقبل .

ـ أى متاعب يا « حسن » ؟

فقال وهو ينفخ الدخان :

ـ من الضرورى أن تعود إليك أرضك يا « رضا » .

وحملق فى وجهه فرأى علامات مخيفة تلمع فى عينيه .

ـ يجب أن آخذ أرضى حقيقة .. إننى مصمم على أن أسافر لأقابل «حمودة » بنفسى .

فأمسك « حسن » بكتفه كأنه يمنعه من السقوط وسأل فى قلق :

ـ تسافر ؟

فهز رأسه موافقا .

ـ إنه لا يتردد فى قتلك ..

فضحك مستهزئا :

ـ لقد قتلنى وانتهى الأمر ..

ـ إذن فانتظر حتى أكون هناك .. بعد شهر واحد .. أضفه إلى

المدة الماضية .. « ونهض » .. سلام عليكم فقد آن وقت العودة .

وماكاد ينصرف حتى أحس « رضا » بالضيق ، أحس أنه فى غربة وتيه ، وأن النهاية الصغرى لحياته لم تكتمل بعد وإن عاش فى نشوة قلبية ربما كانت الآن أوهاما .. إنه يعتقد أن « ثريا » تحبه وأنها ربما قبلت مشاركته مأساة حياته ، ولكن .. أليس من الجائز أن يكون هذا كله وهما ، وأن فيها بساطة أبيها واندفاعه الفطرى نحو المروءة ، ومن الجائز ألايدوم هذا الحال ، فماذا إذن فى الحياة ؟

ونظر حوله فإذا بالليل يهبط والظلام ينزل على العاصمة الكبيرة ، فقام إلى البيت واختار أن يذهب ماشيا كأنما يريد أن يستهلك طاقاته بحركة يديه ورجليه حتى وصل إلى هناك .

وعندما طرق باب الحجرة وفتحت له أمه رأى على وجهها علامات سرور لم يشهدها من قبل .

ـ ادخل .. عندنا ضيفة .

وهتف قلبه ولسانه :

ـ أهلا .. أهلا وسهلا .

فقامت « ثريا » لتسلم عليه ،كانت جالسة على الكرسى القريب من النافذة حيث تعود هو أن يجلس ويطل على الليل والميدان ، وفى روب من القطيفة قديم عريق يحمل ذكريات ما قبل الحرب ، أزرق بحرى فيه نقوش بيضاء كأزهار الربيع ، وعند نهاية الكم لمعت عدة غوايش من الذهب على معصمها الممتلىء وفى الوقت الذى كانت الأم

فيه مشغولة بالبحث عن شىء فى درج الصوان ، كانت كلمات غامضة على الشفتين ، وكلمات ناطقة فى العينين فى ظل ابتسامة صغيرة ..كل هذا على وجه « ثريا » .

ـ أهلا ..

قالها « رضا » وهو ينقل نظره من وجهها إلى المصباح ، ويحتضـــن إحدى ركبتيه بين ذراعيه وهو جالس على الكنبة ، فـردت « ثريا » بطمأنينة شديدة :

ـ أهلا بك .. إن السيدة الوالدة كريمة .. قبل المغرب بقليل صعدت إلى هنا لأن خللا حدث فى الراديو .

وسكتت .. فهز رأسه مستوضحا فى الوقت الذى خرجت أمه تحمل شيئا ملفوفا بين يديها واتجهت إلى المطبخ ، وكان على الخارج من الحجرة أن يقفل الباب حذرا من جو ديسمبر والليل شديد البرودة . ولأول مرة فى حياته يرى بابا يقفل عليه ومعه امرأة ، وبعد أن يذهب أثر اللفحة الباردة التى دخلت من السطح أحس أن دفء الحجرة غيرمألوف ، يغلب عليه دفء الروح أكثر ، وخيل إليه فى طرفة عين أن الأرض كلها هنا .. عزبة « ماضى » .. وملك «هتلر » .. ومستعمرات بريطانيا ..

وذكر« حسن » ووجهه الباسر من الغضب وهومنصرف من القهوة، وذكر « حمودة » وعداواته ، وأصهار « حمودة » الذين يتربصون به ، وكأن هاتين العينين الفاترتين قادرتان على أن تشفيا الأحقاد .

ـ أهلا وسهلا ، وماذا حدث للراديو ؟

ـ سلك الإيريال كان مقطوعا ، فصعدت أنا والكهربائى لتركيب سلك جديد .

« ومثلت الحركة بأصابعها وذراعيها وهى تبتسم » .

ـ آآه ..

قالها وهو يهز رأسه كمن فهم قضية غريبة ، ثم ولدت ابتسامة على شفتيه فى الوقت الذى كانت هى فيه تضحك كأنها تتهمه بالسذاجة ، وقد تكورت على كل خد تفاحة ..

ـ وقابلتنى أمك ودخلت أسليها .. بالهامن سيدة طيبة .

وتنهد شأن من يكتم الكثير ، وساد صمت ..كان كل منهما يحملق فى الآخر ويود أن يقص عليه تاريخ حياته ، ثم يسأله عن مستقبل نفسه حتى كأن كلامنهما يعلم الغيب بالنسبة للآخر فقط ، أما مستقبله هو . فلا .

وعاد فتنهد فسألت « ثريا » :

ـ مالك ؟

فتحير بماذا يجيب ، ثم مالبث أن قال :

ـ أبدا .. لا شىء .. غير أننى خائف .

سألته بشوق وعجلة :

ـ من ماذا ؟

ـ آ .. آ .. من .. الليل .

ـ من الليل ؟ هل تخاف من الغارات

ـ أنا ؟ أنا لاأخاف من الموت إلاإذا هدد أمي ..

فأسبلت عينيها وهى مبتسمة ، ثم قالت كمن يحلم :

ـ وأنا لا أخاف من الموت إلاإذا هدد من أحبه ..

ـ من ؟

ـ بابا ..

وكتمت ضحكتها ، ثم عادت فسألت :

ـ لماذا لاتهاجر إلى الريف مادام هذا يقلقها ؟

ـ من الممكن أن تهاجر .. لكن .. آه .. لذلك قصة ربما عرفتها في المستقبل .

ـ المستقبل ؟ المستقبل ؟ المستقبل ؟ آه ..

ـ ماله ؟

ـ ماله ؟ حلو .. « بضحكة » بابا يتحدث عنه بثقة كأنه صديقه المخلص ، وماما لاتعرف عنه شيئا لأنها سلمته لله .. وأنا .. لامثل أبى ولامثل أمى .

ـ آه .. تذكرت والدك .. كيف حاله يا« ثريا » كم هو رجل لطيف !

ـ إنه يبيت الليلة فى الخارج بأحد قطارات الصعيد ، وفى كل رحلة يحمل إلينا شيئا طريفا .. هدية أو حكاية .

ـ ليت أبى كان مثله !

فردت مجاملة :

ـ إنه بلا شك أحسن منه.

فاحمر وجهه وأحس بحرارة تملأ جسمه حتى شحمه أذنيه ، وأحس أن والده لايساوى فى الميزان أمام عم « جابر » شيئا يذكر ، هذا الذى خلق من البنات أرواحا قادرة .

ـ لو تعرفين كيف أحبه !

ـ إلى هذا الحد يا« رضا » ؟

ـ إلى حد أننى تمنيت أن يكون أبى .

فقالت بلهجة حاكت بها إحدى الممثلات المعروفات كأنما لتنسب الحديث إلى غيرها :

ـ ومعنى ذلك أن أكون أختك !

فرد وهو يبحث عن ريقه :

ـ نعم .. نعم يا« ثريا » .

ـ تشرفنا ..

قالتها بنبرة مسحورة فى الوقت الذى ارتفع فيه صوت آخر يقول نفس الكلمة بلهجة ريفية حرة ، بعد أن دفعت الباب برجلها .

وكانت الأم تحمل بين يديها صينية عليها أكواب من الشاى وثلاث قطع من البسيسة صنعتها هى ، وأخذوا يأكلون ويتكلمون عن الحرب ، وأخذ « رضا » يتكلم بمرارة عن الذين يسلبون الناس أوطانهم ، وكانت معالم وطنه الصغير تتخايل أمامه كأنها خريطة على

الجدار ..

ولم يطل بهم الحديث حتى انطلقت الصفارات وانبعث صوت من أعماق الشارع ينادى : « اطفى النور .. اطفى النور »

فخرج الثلاثة وأوصدوا الباب .. وعبروا السطح .وكان « رضا » فى الوسط وأمه إلى يمينه و « ثريا » إلى شماله ، والقلوب تخفق وهم يعبرون الأمتار العشرة المؤدية إلى السلم ، قلب الشاب والفتاة يخفقان من الحب ، وقلب الأم يخفق من الخوف ..

وهبط الثلاثة ..

وكف « رضا » بكف « ثريا » كخائف أن تضيع ، وكفها مسترخية فى الاستسلام ، وباليد الأخرى أمسك بذراع أمه .

والرؤى والمحسوسات مختلفة فى إدراكهم كأنهم يحلمون .

١١
الرحلة

كان اليوم يوم عطلة .. شتويا دافئا بعد أسبوع من الأمطار والشمس تفرش السطح و « رضا » في حجرته يقرأ جريدة الصباح ويفكر فيما عسى أن يلقاه « حسن » فى القرية بعد عودته إلى الريف. لقد ودعه ليلة البارحة وسهرا فى السينما ، وتعانقا عند محطة الترام وبكيا .. وكان كل منهما يسأل الآخر بدون كلام : « ترى أين سنلتقى »؟.

وتذكر « بدور » ووجهها الحلو وزوجها الحارس لـ « حمودة » و « حمودة » وماله الذى يتزايد ، إنه يكسب من توريد البطاطس للإنجليز ، وقد بنى بيتا جديدا بعيدا عن دور الفلاحين وحول القديم إلى مخازن ، والجديد على الشط الآخر من الترعة فى انعزال وأبهة .

.. والدنيا تغيرت بالنسبة للآخرين ..

وكان عمال المطابع وموظفوها يلاقون في هذه الآونة كسادا وضيق حال لارتفاع أسعار الورق وانقطاعه من الخارج .

ومستقبل « رضا » فى عمله معلق فى خيط ، لكنه لم يكن فزعا ولم يستطع تعليل ذلك ، لماذا لم يعد خائفا من شىء ؟

وعلى الرغم من ذلك تبين الفرق الفادح بين بقية الناس والأشياء ، بين آباء من حقهم أن يعبدوا مثل عم « جابر » وآباء يجب أن يقفوا متهمين . وتأوه ..

وذكر أمه ، هذه التى لم تنل سوى التشريد ، وأخوها الذى يحمل قلب الشرفاء ويحيا حياة مخالفة ..

وذكر شخصا جديدا هو الأستاذ البتانونى المحامى الذائع الصيت فى الريف فى منطقتهم . حدثه عنه « حسن » فى آخر لقاء وقال : إنه من الممكن أن يعرض عليه قضيته مثل كل القضايا المعقدة التى يعرضها الناس فى الإقليم .

وأخذ « رضا » يتخيل : أليس من الجائز أن يحل هذا الرجل قضيته الملموسة ؟

إن الحق الشرعى ليس فى حاجة إلى وثيقة ، وإذا كان الأستاذ البتانونى سيتوصل إلى حل فإنه سيكون عن طريق الصلح . نعم ، والذى يسنده فى ذلك ليس أنه حجة فى القانون ، بل سنده الحقيقى أرضه .. إنه محام فى الريف يحمل نفس السلاح الذى يقدسه الريفى .

وضحك « رضا » من أنفه ساخرا : « والأرض أيضا » لأن الأستاذ البتانونى قد استطاع أن يقتنى أكثر من ثلثمائة فدان اشتراها حين اشتدت الأزمة العالمية ، ثم أخذ دخله يتزايد .

وأحس « رضا » بصداع فرغب فى كوب من الشاى .. لكنه مالبث أن تـذكر أن بيتهم خال من السكر ، وتمنى أن يجد فى البيت « شيشة » ، ماأجمل أن ينفث الدخان وينظر إلى الفقاقيع المحبوسة ! وتذكرالقهوة فى شارع منصور فهم بأن يقوم لينزل ، لكنه ما لبث أن سمع وقع أقدام على بلاط السطوح .

وطرق الباب ففتح ودخلت « ثريا » .

كان فى عينها فرحة لم يعرف سرها . ومعها شيء ملفوف . وضعته فى صمت على المنضدة ، وسألت عن أمه ثم لم تنتظر الجواب فأخذت تتحدث عن أبيها وهى واقفة ، كانت سعيدة كأنه قد عاد من الحج .. وأخبرته أنه عائد من الصعيد ومعه التموين ما داموا لا يجدون فى القاهرة سكرا ولا شايا ولازيتا ولا جازا ، وأن أمها رمت بالسمك حيا فى البحرثانيا عند المعدية .. فهتف السمك لرئيس الوزراء.

وضحكت فى طفولة .. لم تبد عليها من قبل . وأخبرته أنها سمعت هذه النكتة من تلميذة فى المدرسة ، وأكدت لها التلميذة الصغيرة أن الحكاية حقيقية ، لأن السمك الذى عاد للبحر منتصرا كان من دكان أبيها ..

وضحك ورجاها أن تجلس فجلست ، ونظر إلى الورقة الملفوفة فوجدها قمعا من السكر يحمل ذكريات الريف ، واختفى بعد لحظات جو الطفولة المرح الذى بدا عليها ، وكساها جد فطرى صانته من الجفاوة

عذوبة روحها .

ولم يكن هناك حس ولاصوت ، وحتى ضجيج الشارع كان يصل إليهما مخنوقا ، وأحسا أنهما التقيا وجها لوجه ، وأن شيئا جديدا على وشك أن يقال ، وشعرت الفتاة باضطراب فسألت :

ـ أين أمك ؟

فصمت ولم يرد ، وتخايلت على فمه ابتسامة داعية ، ومن عينيه الصريحتين أطلت روحه الحيرى ، وتنهد ونظر إليها .

تلفتت « ثريا » فى المكان وسألت باهتمام ولكن بغير خوف . وخيل إلى « رضا » أن شجاعة أبيها قد رافقتها . سألت :

ـ أين أمك ؟

فأشار بيده إلى قلبه ، فابتسمت وهزت رأسها :

ـ أعلم ذلك ، كما أعلم أن هناك أزمة مساكن فى هذه الأيام .

ـ لا .. إنها لاتسكنه وحدها ، إنها تحرس الباب لشخص آخريسكنه .. « ونظر إليها » .

ففتحت عينيها واستنار وجهها بالسرور :

ـ إلى هذه الدرجة ؟

ـ ضرورى ، إن حياتى خالية من النور.

« وصمت واستطرد فى ابتسام » ولافانوس واحد حتى مدهون بالأزرق .

ـ هل فى حياتك حرب ؟

ـ حياتى كلها حرب .. الحق معى ، والسلاح مع خصمى . من الذى سينتصر يا « ثريا » ؟

ـ السلاح بلاحق أقوى من الحق غير المسلح .. هه لكن .. ما أصل الحكاية ؟

ـ نعم يجب أن تعرفيها .

***

ثم فرغ من القصة ..

غيرأن النواحى المؤسفة التى تتعلق بأمه لم تجر على لسانه ، ودمعت عيناها الناعستان ، وعضت أسنانها وقد انفرجت شفتاها عن شبه ابتسامة أتبعتها بقولها :

ـ نحن مستعدون أن نصنع من أجلك شيئا .. أنا وأبى .. أنت لاتدرى كيف يحبك ، أنا وأبى .. أو أنا وحدى .

فهمس مستغربا :

ـ أنت وحدك ؟

ـ نعم .. هل ترى هناك فرقا بينى وبين أبى ؟

ـ فى أى شىء ؟

ـ فى كل شىء نحوك .. «وتأوهت » لكن .. لماذ تعيش مظلوما هكذا ؟ اذهب وقابل هذا المحامى ، افعل أى شىء من أجل نفسك .. هل تريد شيئا من النقود ؟

ولما لم يرد وضعت يدهاعلى كتفه كأنها توقظه ، وكان جالسا

على مقربة منها مطرقا نحو الأرض ، وأمسك كفها ورفعها إلى فمه ثم مرغ عليها خده ، أحس أنه طفل فى ظل أم ، لعل « ثريا » فى هذه اللحظة أحست بإحساس مقارب وهمست تسأل :

ـ أين أمك ؟

ـ عند خالى .

نطق بهذه الكلمة وهو يرتعش ، وأمسك كتفيها ، كل كتف بيد وجذبها نحوه ، وارتخت عيناها الفاترتان فأغمضتا تماما ، وأحس حرارة أنفاسها وبرد ريقها في وقت واحد . وفي تلك الوهلة التى تخرج عن مقياس الزمن أحس كأنه دخل أرضه وزرع وحصد ، وأحب وتزوج .

ثم تبدد كل هذا بتباعد الشفاه وعودة الرؤى إلى العينين. وانتفضت « ثريا » واقفة وهى تسوى شعرها وتقول بصوت خافت : « يجب أن أنزل .. آه .. ليتك شجاع فى الحرب .. مثل شجاعتك فى الحـ .. » .

وضحكت ولم تكمل وخرجت ولم تلتفت ..

***

وبات « رضا » يحس بأن حقه في الحياة صار أغلى ، وبات يحلم بالعودة ومعه إنسانة حبيبة ، وكل ساعة تمر كانت تخدم هذه المشاعر.

ومرت به لحظات أخرى كانت مشحونة ببطولة مثل بطولة الأطفال تخيل فيها أنه قادر على إتيان الخوارق حتى على إغناء هذا الشحاذ الجالس تحت الشمس بأسمال وعكاز ويتكفف مرضى البلهارسيا

الداخلين والخارجين بدعاء مرتل .

وكان من المحال أن يخبر أمه بشيء لأنه لو فعل لصرخت في وجهه . لقد مرت عشر سنوات على التقريب على حادث خروجهم وهاهوذا قد بلغ الثانية والعشرين من العمر ويريد أن يطالب بحقه المسلوب .

ومهد لأمه طريق الحديث عن السفر فمالبثت أن طلبت ذلك منه فاتفقا على أن يسافرا معا حيث يتركها عند عمتها لتقضي بضعة أسابيع ويعود هو لعمله .

ولم تنم أمه من الفرحة ، باتت تمني نفسها بأن تقف على السطوح في قرية أبيها وتنظر نحو الجنوب الغربي فترى أبراج الحمام ، وتشم رائحة أبيها في الدار التي باعها « بركات » يوم أقسم ألا تطأ قدمه أرض قريتهم ، وتحملق في « سماعة » الباب الحديدية التي عبثت بها وهي طفلة تلعب .

هكذا كانت أفكارها ..

أما «رضا » فقد كان في غاية من الاضطراب ، ولم يكن أحد يعلم سر ما سيقدم عليه سوى « ثريا » ، وحتى « حسن » لم يرسل إليه .. خاف أن يصيبه مكروه بسببه ، وفي عقيدة « رضا » أن « حسن » ذخيرة له في العزبة ، وهو قلب مخلص .. وإن كان اليوم وحيدا فربما أعدى بإخلاصه آخرين .

وقبل سفره بيوم كان بانتظار « ثريا » على مقربة من المدرسة

وفى المساء أعلنت لأمها أنها ستغيب غدا حتى نهاية اليوم لأنها ستكون مع التلميذات فى رحلة إلى سقارة .

***

ولم تذهب إلى المدرسة إلا لتعتذر ثم خرجت ، وفى ميدان الجيزة تقابل الاثنان . وكان « رضا » فى عطلة يوم الأحد ، وكانت « ثريا » تحمل حقيبة الرحلات ، وقد ملأتها أمها بالطعام ولم تكن « ثريا » تحس كثيرا من الخوف ، كأن تفوقها الروحى عليه جعلها تشعر أنها بمأمن ، أما « رضا » فلم يكن لديه فكرة معينة عن شىء .. ووقف حائرا وهى تنتظر فى هدوء وابتسام قراره الأخير.

وعلى مقربة منهما كان موقف السيارات العمومية التى تتجه إلى ريف الجيزة وبين فترة وفترة ينبعث صوت غلام أو رجل يعلن قرب قيام سيارة إلى بلد ما ..

وأخيرا قالت « ثريا » : عندي فكرة .. تعال نسافر إلى بلدك .

ـ ماذا قلت يا « ثريا » ؟

فأثار فيها طبعها المرح الميال أحيانا إلى الشغب ، ولذ لها أن تسترسل فقالت كأنها جادة :

ـ وماذا يضير ؟ هل أنت خائف ؟ أنا معك .. ماذا تخاف ؟ انظر..

فإذا بقافلة من جنود المستعمرات تخترق الميدان ، من نيوزيلاند وأستراليا والهند ، جاءوا ليقاتلوا « رومل » على رمال الصحراء ،

وكان فيهم رجال يبدو على وجههم المرض ومتطوعون يبدو عليهم السن، وحملق « رضا » فى العساكر وانخرطت « ثريا » تضحك ثم سكتت وهمست وكأنها ترقيه :

ــ بلدك .. وخائف ؟ .. ياخسارة ..

وقبل أن يتكلم قالت شيئا آخر :

ــ تعال نقابل الأستاذ البنانونى معا .. هل عندك مانع ؟

وغطى على اقتراحها غير الجاد صوت صبى إحدى العربات يهتف :

ــ البدرشين .. يامسافر .. البدرشين .

وقبل أن تتحرك السيارة كانت قد أمسكته من أطراف أصابعه ، أربع أصابع كانوا فى كفها ، وجرته إلى السيارة فسار مذهولا، وقبل أن يصعد سألها فى همس :

ــ إلى أين يا « ثريا » ؟

ــ إلى أى مكان .. نحن نبحث عن مكان نجلس فيه ولايهم أن يكون ثابتا أو متحركا.. « واستطردت ضاحكة » تعال يابنى .. تقدم . فالفرق ليس كبيرا بين الكرسى الثابت فى القاهرة والكرسى المتحرك فى الأتوبيس .. وجلسا متجاورين . ومالبثت العربة أن تحركت وعلاالصخب فى كل أنحائها وأصبح أزيزمحركها يصم الآذان ، ويبعث الخدر فى الأرجل ، وكان على الركاب أن يصخبوا لأن درجة الصوت العادية من المحال أن تصل إلى أذن .

وبدأ الحبيبان يتناجيان ، وبدت «ثريا» فى غاية من المرح ، تعلق على كـل كلمـة تسمعـها ، وعلى كل منظـر فى الطـريق الزراعى ، وأحس «رضا» أن الفكرة موفقة عندما كانت مطبات الطريق وملفاته تتيح لهما أن يتلاصقا وأن يتماسكا أيضا ، ولم يكن مستطاعا أن يحس طعم الدفء الذى يفيض به جسمها مالم تقترح عليه هذا السفر .
وعندما بدت خضرة الحقول وانبساطها أحس الحنين ، وتخيل فى وهلة أنه يشق طريقه نحوالشمال وأن هذه الترعة هى التى تقع عليها عزبة «ماضى» وأفاق من أفكاره على أنفاس «ثريا» تلامس أذنه لأنها قربت فمها منه وقالت له :

ـ فى ماذا تفكر؟ .. لاتفكر وأنا جنبك إلا فى شىء واحد ..

وضيقت عينيها الفاترتين قائلة بهما :

ـ أنا ..

فابتسم ..

ـ إننى أتمنى أن تسير بنا السيارة إلى ما لانهاية .. آه .. لك حق يا «ثريا» أحيانا يحلو للإنسان أن يتوه حتى عن نفسه .. والدنيا كلها ..

فقالت بخفة :

ـ وأنا مالى .. هل تشعر بالسعادة ؟

ـ جدا ..

ـ عال .. وهو المطلوب ..

وصمتت قليلا وعاودتها من جديد رغبتها فى التفوق فقالت :

ـ ماذ تعمل لو أن أبى فاجأنا بالركوب من المحطة القادمة وسألك عن معنى هذا التصرف ؟

فشرد وعيناه تقطعان الفضاء . ثم ابتسم وقال :

ـ صحيح ماذا أعمل ؟ سؤال وجيه ، لكن .. ماذا تعملين أنت؟..

فضحكت وهى تكاد تسند رأسها إلى كتفه حتى لفحت أنفاسها خده ، وعلى بعد عدة كيلومترات من القاهرة وقفت السيارة فى محطة ريفية .

كان هناك خمائل من النخل وترع جانبية ، والشمس زاهية كأنها فى الربيع فأخذ الحبيبان متاعهما ونزلا ، واستأنفت السيارة رحلتها ، وماكاد ضجيج المحرك يختفى حتى أحسا أنهما وحدهما وأن الأرض لهما ، بكل انبساطها وخضرتها وماتحمل من خيرات .

لم يفكر إلى أين يتجهان فكل اتجاه كان صالح لهما ، كان كل منهما يقول لنفسه : « ماذا لو كانت الحياة هكذا »؟

وساراملتصقين أو متماسكين ، والنخل هادىء يهمس سعفه فى رفق وشتيت من السحاب على شكل زغب الريش ينتشر فى السماء ..

نظرت إليه « ثريا » بعينيها السكراوين وهمست :

ـ « رضا » عندكم نخل ؟

ـ نعم عندنا ..

ـ وهل تسلقت يوما نخلة يا « رضا » ؟



أحسا كأنهما وحدهما وأن الأرض لهما

ـ نعم .

فنظرت نظرة جانبية وابتسمت فى خبث :

ـ هيه .. يظهر أن هدوئك هذا مصطنع .

ـ لماذا ؟

ـ ووصلت إلى البلح فى نهاية الأمر أو رجعت بلا فائدة ؟؟

وخنقها الضحك واغرورقت عيناها بالدموع ، ففهم قصدها .. إنها تتكلم عن الحب والعناء الذى يحف طريقه، فجاراها وهو خجلان ، وتدافعا إلى بقعة جافة على الطريق وجلسا يتحدثان .

وشعر« رضا » فى ذلك اليوم أن الحياة من الممكن أن تستقيم كما صفت هذه السماء بعد تكدر ، لكن شيئا طارئا جعل قلبه يرتجف هوتصوره أن يعيش يوما ما بدون «ثريا » .

وكانت هى فى هذه اللحظة تغنى بصوت خافت ، وتأكد « رضا » أنها لاتشعربوجوده وحتى وجود نفسها . وكان ذلك طبيعيا فقد لمستها العصا السحرية وانسحبت ويبقى أثرها يؤدى غرضه ،وليس ضروريا أن تبقى العصا .

وفى خلال هذه الساعات كانت نفسه قد أشبعت بأشياء كثيرة أهمها أن يسافر، ومستعد لأن يلقى الشيطان وجها لوجه .. فى سبيل أن يدخل هذه الأرض .. ومعه .. ثريا .

***

وعادت بهما سيارة أخرى بعد الظهر فى جو غائم ، كانت

الشمس قد غطيت بالسحاب و « ثريا تحس بصداع ، وثقل كأنه نوم ، لعله مخاوف مدفوعة اخترقت نطاق الشجاعة أو تغلبت على سكرة الحب .. فعندما تهبط درجة النشوة ترتفع درجة المخاوف ..

وافترقا فى ميدان الجيزة ، وبدا كل شىء متغيرا عن ساعة الصباح، كأن الحرب نفسها قد ألقت على القاهرة أعباء جديدة ، فقد كان سيل من الدبابات يتجه نحو الهرم والناس يحملقون إليها في وجوم .

وبدا « رضا » طوال هذه الليلة مهموما ثقيل النفس .. أحس كأنه جند قبل سن القرعة .. وبدا أن المهمة أضخم منه ، لكنه ذكر الشظايا التى تتطاير فى سماء القاهرة والضحايا الذين يموتون ، والأحياء الكاملة التى دكت فى الإسكندرية . فهز كتفه فى استخفاف: « ما أتفه الحياة .. لولا الحب .. ماكانت تساوى الشهيق والزفير » .

وكف عن التفكير .. وتقدم الليل وكل شىء ساكن وتمنى أن ينطلق مدفع أو تنذر المدينة بغارة ، لينزل إلى « ثريا » لكن شيئا لم يحدث ، وتناهى إليه ضحك السكارى من « البوظة » كان كل شىء مطمئنا فى هذه الليلة .. ثم جاءه صوت الصديقين اللذين يركبان الترام من المحطة القريبة وكان أحدهما يغنى .. « على بلد المحبوب ودينى ». بلسان متلعثم ، والثانى يهلل فى سعادة ويقول بين لحظة ولحظة : « خدنى معاك ».. آه .. آه .. خدنى معاك .

ولما سمعا صرير الترام آتيا ، أطلقا ضحكة طويلة تحية له صمت بعدها كل شىء .

١٢
أبراج الحمام

حين كانت الأم واقفة على سطح الدار فى موطن أبيها تحملق نحو الجنوب الغربى لترى النخل وأبراج الحمام فى عزبة « ماضى » كان ابنها « رضا » يدخل مكتب الأستاذ البتانونى المحامى فى المركز .

وفى شوارع البلدة عرف وجوها لم تعرفه .. كانوا أندادا لأخيه ، أما أنداده فلم ير أحدا منهم ، وحتى لو قابله أحدهم فمن المتعذر عليه أن يعرفه فقد غيرت الأيام كل شىء .

ولم يكن يحمل خطة ، وكل مادفعه إلى هذا الموقف هو شهرة الرجل فى الإقليم وقدرته على حل المشاكل بطرقه الخاصة « بسيفه أوذهبه » .

وفى حجرة انتظار كبيرة جلس يرقب دوره بعد أن أكد للوكيل أنه جاء بمشورة أحد المحامين المعروفين فى القاهرة ، كان قد قابله هناك فأشار إليه أن يأتى إلى الأستاذ البتانونى فهو وحده القادر على حل القضية .

كان « رضا » ينتظر فى حجرة كبيرة أقرب إلى دواوير العمد منها

إلى شيء آخر فيها وجوه متناقضة وأزياء مختلفة : ريفي طويل الشارب يبدو عليه الثراء ومعه تابع في كتفه بندقية ، ومتصوف بجبة وقفطان وعمامة خضراء ولحية فتية ووجه نضر ، وشاب مطرق في تفكيرمائل بعنقه إلى اليمين في فمه غليون وينفث الدخان في همود ، وصوت امرأة يرتفع في مكان ما غاضبا ، ورجال من كل نوع وسن .

كان الأستاذ البتانوني يعاني فضولا وقلقا على قضية مصر وهو الاسم الذي أطلقه وكيله على قضية « رضا » .. لأنها من أهم الحوادث في تاريخ حياته المهنية . وإذا جاز أن يجيء لعيادة الدكتورنيقولا في هذه البلدة أحد المرضى القادرين في القاهرة لإجراء عملية جاز بالتالي أن يحدث هذا بالنسبة لمكتب الأستاذ ، لذلك كان من الضروري أن يهتم بالأمر .

ودخل عليه « رضا » .

لم يكن في الحجرة شيء أنيق ، كانت واسعة ظاهرة الارتفاع يتدلى من سقفها في سلك معدني مصباح أثري يشعل بالليل ، وفي ركن قريب تأخذه العين موقد من النحاس فيه رماد بائت ، أما الأستاذ فقد قام نصف قومة وسلم على « رضا » الذي انحنى في توقير وأمل ، وأتيح له بعد ذلك أن يتبين طلعة الأستاذ : رجل في الستين على التقريب طويل الوجه ريفيه ، لايبدو عليه كثيرا هيئة المتعلمين . له شارب غزير الشعر مقصوص لم يتغلب عليه الشيب . أسمر ، خافت الصوت ، يغمز بإحدى عينيه ويمصمص بشفتيه ، إذاوجد نفسه محتاجا

لفرصة تفكير أو عاجزا عن الرد .

وجو الحجرة تفوح منه على العموم رائحة السمسرة أكثر مما تفوح رائحة البحث .

وحملق « رضا » فى لافتة كبيرة وضعت خلف ظهر الأستاذ فيها صورة ميزان ـ رمز العدل ـ وفوقها آية قرآنية : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » ، ثم سحب نظره ليلتقى بنظر الأستاذ فرآه متربصا كأنه صيد ، وغمز بإحدى عينيه عدة غمزات ، ثم مصمص بشفتيه ، وأبدى ترحيبا ، وجد « رضا » بعده نفسه وقد انطلق فى الحديث ..

ـ إن قضيتى هنا فى الريف .. وهى قضية بلا وثائق .

وسكت الشاب ونظر للميزان والآية ومصمص الأستاذ بشفتيه وأغمض عينيه فى هذه المرة ثم رد كمن يحلم :

ـ آه .. قضية بلا وثائق .. هسيه .. لابد أنها من القضايا « إياها » .

ـ القضايا إياها ؟

وتلجلج الشاب وعاد فاسترد رشده .

ـ إننى على كل حال سأشرح الأمرلسعادتك .. إن الحق الشرعى كما قالوالى ـ لايحتاج إلى وثيقة .. لكن .. أنا ..

ـ أكمل يابنى .. إننى أسمعك .

ـ كان أبى من أغنياء هذه المنطقة ، مات عن مائتى فدان لى أنا وأخى الكبير ، لكن أخى اغتصب حقى .. آ ..

ومصمص الأستاذ بشفتيه وغمز بإحدى عينيه بطريقة عصبية ثم سأل بلهفة :

ــ أنت من هنا إذن ؟ لكن الوكيل قال لى إنك من مصر .

ــ كلانا صادق ..

ــ عظيم ، ومن يكون المرحوم أبوك ؟

ــ هو .. الحاج .. الحاج « ماضى » ..

فرد الأستاذ كمن تذكر شيئا بعيدا :

ــ هيه .. إذن أنت ابنه الثانى ؟

وأخـذ يهـز رأسه بحـركة ظن « رضا » أنها لن تتوقف وهو يحملق ، وعيناه نصف مغمضتين كأنه متعب ، ولم يستطع الشاب أن يستنبط شيئا لكن فترة صمت ظللت على الحجرة انبعثت خلالها كحة المحامى ورائحة رماد النار ، وصوت فرس يصهد على باب المكتب بانتظار أحد الزبائن ، ثم تبدد الصـمت بقـول الأستاذ بخفـوت كأنه مناجاة :

ــ قضية بلا مستندات .. نعم .. هيه ؟ . ومالعمل ؟

سأله « رضا » فى قنوط :

ــ هل أفهم أن سعادتك على علم بالموضوع !

ــ نعم .. نعم يابنى .. فملاك الأراضى من طبعهم فى كل منطقة أن يحفظوا تاريخها كما يعرفون حدودها ، وأظن أن والدك رحمه الله .. كان قد باعها كلها لأخيك .

وتنحنح ..

ـ كل هذا زور ياسيدى .. آه .. وهل سعادتك إذن تعرف ماذا كان أبى ؟

قال فى ابتسام :

ـ كان تاجر مواشى :

ـ وكان مريضا بالصرع ، لعلك تعرف بقية القصة ، و . وأنا . أنا ..

وأخذ الشاب يبحث عن ريقه ليكمل الكلام ، كان ريقه قد جف ، وطاف بخاطره ذكريات أمه وأبيه والطفولة والليلة التى لاتنسى . ثم ليالى جوع ومخاوف وبدت صورة الميزان تظهر له من خلال الضباب الذى فرضته الدموع وكان المحامى مطرقا يفكر وصهيل الفرس يأتى من الخارج كعلامة تستعجل الرحيل ، وفجأة وجد الشاب نفسه يبكى .

نظر إليه المحامى والدهشة فى عينيه وأخذته حركة عصبية فأخذ يغمز باستمرار ، ودق الجرس وطلب له شرابا دافئا ، ثم سأله بعد أن هدأ :

ـ هل أنت مستعد للإنفاق على هذه القضية ؟

فأشار بالإيجاب . فرد المحامى بصوت خافت :

ـ لكنى لاأريد مالا .

فاستنار وجه « رضا » بالبهجة وبدت عليه براءة الطفل .

ـ وهل معقول ياسيدى أن رجلا مثلك .. « ولم يكمل حديثه » .



وتخايلت على شفة المحامى ابتسامة تحمل طابع الأستاذية ..

فتخايلت على شفة المحامى ابتسامة فذة ، هى وحدها التى بدت تحمل الأستاذية لأنها أشارت إلى معانى الخديعة فى ذلك الإنسان الذى يستمد قدرته فى هذا المكان من أرضه لامن مهنته . تنهد أخيرا وقال للشاب :

ـ قضية بلامستندات تحتاج إلى إجراءات غيرعادية .. نعم .. هل تفهم معنى إجراءات غيرعادية ؟ ولابد أن تكون الأتعاب عينيه .. آخذها بطريقتى ..

ـ عينيه ! ماذا أفهم .. يعنى .. آ ..

ـ نعم .. لى عشرون فدانا من نصيبك الذى يقارب مائة فدان..

وصهل الحصان كأنه جريح ، وترددت عين رضا بين الميزان والآية وموقد النار ، وذكر أشياء كثيرة كان أهمها « ثريا » .. وأحس طنينا فى أذنيه كأنه يغوص فى الماء وثقلا فى أوصاله : « يارب .. إنى أكاد أسقط على الأرض » .

ـ موافق يابنى ؟

ـ ...

ـ فكر .. ثم ارجع إذا أحببت . إن الموضوع شائك كما ترى .. رحم الله والدك .. رحمه الله ..

ودق الجرس فدخل الكاتب .. فطلب الأستاذ من عليه الدور وخرج « رضا » .

***

شعر أنه من المحال أن يبيت فى هذه البلدة حتى لو قدر كأن كل الذين يصادفونه فى الطريق قد اغتصب كل منهم شبرا من أرضه فضاعت . كان موقنا أن الدنيا كلها تآمرت عليه ، فقد كان متوقعا أن يطلب الأستاذ البتانونى أى مبلغ من المال ، لكن ..

كانت مهمة « رضا » حيال نفسه أن يعرف : « بكم يستطيع أن يسترد أرضه ؟» إنه قادر كأى قوة عمياء على أن يقتل « حمودة » وبعد ذلك ستسير الأمور بطريقة لايعلمها إلاالله .

إنه لم يتزوج بعد أن طلق « زينب » والخلاف والدسائس بينه وبين أصهاره قائمة على قدم وساق وهناك ناس يزكونها وقضايا نفقة ومؤخر صداق ومشاغبات ريفية كالحرائق وإغراق الأرض ، لكن ليست أمثال هذه المعارك حاسمة بالنسبة لاسترداد الحقوق ..

« هناك أشياء ضخمة يجب أن تعمل » وتنهد ، وأحس أنه بلا نصير ، كانت قطارات البضاعة تمر أمامه فى بطء تحمل بالات وصناديق وقمحا والأفق الذى نشق نسيمه يبدو ضيقا مكتئبا فأحس أنه فى حاجة إلى صدر ..صدر حنون ويد تمسح على رأسه ، وأنامل تتلقف دموعه وتواسيه ، فذكر « ثريا » .. نعم وعم « جابر » عون مادى وعون روحى .

وبشعور جارف أحس أنه يود أن يملك « ثريا » ، وفكر .. هل تحب هى أن تعطيه شيئا ؟

ودخل القطار وركب «رضا » ولما مر على برج من أبراج الحمام

تذكر دار أبيه وشعر بوطأة الظلم .

وبعد دخول الليل بقليل كان يصعد سلم بيته فى القاهرة . فقطع الدرجات الأولى من المدخل فوجد باب « ثريا » على يساره قبل أن يستدير متجها إلى فوق وكان نور خافت يأتى من الداخل ونغمات الراديو تغلب على كل صوت .. وفجأة سمع ضحكة عم « جابر » متدفقة ريا ، منبعثة من قلب خلى لا يعرف الخوف ، فاضت الطمأنينة منه على شكل ضحكة ، وبعدها سمع ضحكة أصغر عرف أنها لإحدى البنات .. جميلة أوعلية.. فلم يملك إلا أن دق الجرس .

وفتحت « ثريا » .. كان واقفا فى الظلام ولكنها عرفته ، كأن رائحة الحيرة فاحت من ثيابه :

ــ رضا ؟

ــ نعم ..

فهمست بحنان :

ــ ادخل .

فعبر فى النور ، ونظرت إليه فبدا كأنه مريض فأحست أن قلبها يخفق ، وقابله عم « جابر » بالترحيب والتهليل وطلب عشاء . كان فى جلباب من الكستورمفتوح الصدر يتكلم عن آخر أنباء الحرب مرددا ماشاع فى هذه الأيام من أن الصيف القادم سيشهد اندحار الإنجليز ، وأن المصريين يستعدون للقضاء على جيوشهم فى مصر بحركة وطنية سيقودها الشباب .

ـ وعنـد ذلـك يا رضـا تنتـهى قصة الإنجـليز عنـدنا .. آه .. إن « قضية مصر » يا رضا ..

ولم يسمع شيئا مما كان يقول عم « جابر » فلقد نقلته الكلمة الأخيرة إلى حيث كان صباح اليوم وتذكر ما دار بينه وبين الأستاذ البتـانونى فلم يجـد بدا من أن يعرض دخيلة نفسه خصوصا لأن عينى « ثريا » الفاترتين كانتا مائجتين بالقلق ، فقص القصة بحذافيرها ، ففغر عم « جابر » فمه وقال مستنكرا :

ـ ياسلام .. يشتغل بالنسبة .. حرام .. لو أراد مالا لكنا تحت أمرك ، لابد أن أحدا يشتغل لحساب هذا الرجل لأن الذى طلبه ممنوع .

ثم قام فجلس بجواره ووضع يده الغليظة على عاتقه وقرب منه وجهه الشهم وقال له :

ـ قل يارضا : ماذا أقدر أن أصنع لك ؟

وضحك ثانيا بخلو بال ، لم يكن قادراعلى أن يعيش فى الهم أكثر من لحظات واستطرد :

ـ هل تحب أن أذهب إلى البتانونى هذا وأعمل به ماعملته فى عساكر الإنجليز فى الخطاطبة .. أو تريد أن أذهب إلى أخيـك .. و .. « ثم أحس بالخجل فاستدرك » :

ـ لامؤاخذة . لم أغلط .. لكن .. الحق يعلو ولا يعلى عليه .. هل أخوك أعلى من الحق ؟

ولم يرد الشاب ..

وخرجت « ثريا » من المكان فقد كان الموقف بالنسبة لها مؤثرا .. ودخلت إلى الحمام وأخذت تبكى ، وانطلقت صفارة الإنذار فحمدت الله لأن كل أحزانها ستتوه فى مآسى الليل .

***

وعند الصباح لم يستطع « رضا » أن ينهض .

وعند خروج « ثريا » إلى عملها قابلها البواب ، كان يحمل فى يده ليمونا ودواء مسكنا ، وتقابلا وجها لوجه وهويعبر الحوش ، ولم تدر « ثريا » لماذ وقف أمامها كأنه يمنحها فرصة لأن تسأله عن شىء ، وعلمت منه أن هذه الأشياء لـ « رضا » فأخذتها منه وصعدت إلى فوق ، ولم يستطع « رضا » أن يتبين وقع أقدامها فقد كانت تلبس حذاء بلا كعبين .

ودفعت الباب ودخلت ففتح عينيه فى دهشة ، ونهض جالسا فى الفراش وقد تنبه كل شىء فيه ، ووضعت « ثريا » حقيبة كتبها ومامعها من أشياء ورقصت على فمها ابتسامة ملؤها الطمأنينة والحب والوداعة ، وفى وهلة لاتزيد على طرفة عين أحس أنه « مالك » الدنيا . وابتسم لأن كلمات « بلا مستندات » رنت فى أذنه كأن فما يهتف بها ، فوجد نفسه محتاجا إلى تأكيد السعادة فأغمض عينيه وفتح ذراعيه ، ونادى باسمها فتقدمت نحوه حتى جلست على حافة الفراش . وعندما لف ذراعه حول خصرها دفعته بلطف وكل شىء فيها خائف وهمست :

ـ جئت إليك .. لأنك حزين .. وربما كنت مريضا .. وربما كنت محتاجا إلى « ثريا » .

وهمس :

ـ نعم .. حزين .. ومريض .. ومحتاج إليك .

فعضت شفتها وهى تدفع صدره بكلتا يديها ، وحملق فرأى أمارات الخوف بادية على وجه ظن أنه لا يعرف الخوف فأحس فى قرارة نفسه بتخاذل شديد ، نفس المشاعر التى تنتابنا حتى لو هتكنا الستر حتى عن ضريح مشعوذ .

وأطرق خجلا وتنهد :

ـ إننى أتعس إنسان ..

فاستردت نفسها :

ـ هييه .. لاتقل هذا يا « غزل البنات » .

وضحكت فى رقة وخوف .. ثم نظرت فى ساعة معصمها وهمست :

ـ الحصة على وشك أن تبدأ .. يجب أن انزل ..

فرد فى قنوط :

ـ انزلى ..

فتلكأت تنتظر وردت بلهجة واعدة تملأ القلب حبا وأحلاما :

ـ فى ساعة أخرى .. ساعة لاتكون أنت بانتظارها ..

وتقدمت منه ومهدت له طريق القبلة .

فنام بعدها حتى الظهر ..

وقبيل المساء عادت إليه ، صعدت إليه هى وأمهاوأختها الصغيرة وسهروا بجانبه يثرثرون وهو فى الفراش .

وعندما انطلقت صفارات الإنذار فى آخر السهرة لم يكن قادرا على النزول .

صعدت إليه « ثريا » وجلست إلى جواره .. كان كل شىء فى المدينة يهتز ولكنهما كانا يضحكان ، كانت الرعشة تسرى فى أوصاله فتقترب منه وتحكم الغطاء حول قدميه ، وتمنى أن يموت ، لكنها كانت هى على العكس .. تحب الحياة ..

وفى الصباح صعدت إليه ..

كان لايزال فى الفراش ، وكانت هى لا تزال فى قميص منزلى ، وأمها فى الحمام ، وأخوتها فى المدارس ، وأبوهـا فى قطار الإسكندرية .

ولم تدر كيف اندست فى أحضانه ولأول مرة فى تاريخ عذرتها أحست بخشونة الذقن .. ونعومة النداء وحرارة الأنفاس ، ولكنها مالبثت أن نهضت بقوة لاعبة « الأكروبات » حين تخترق طوقا من النار وتنتصب منتصرة .

سألها فى عتاب ورقة :

ـ لماذا تخافين منى ؟

همست :

ـ أنا لست خائفة ، لكن الذى أفعله هو طريقة لأوكد لك .

ـ ماذا

ـ إنني .. أنت فاهم !

وصمتت ، وصمت وغطى وجهه بذراعه وهو راقد وهى واقفة على مقربة من الفراش فأمسكت ذراعه ورفعتها وحملقت فى عينيه :

ـ إن ميعاد نزولى قد حان ، وهناك أشياء أخرى منها.. أمى ..

فرد كأنه يناغى أمه :

ـ وهل تتركينى ؟ .

فأرسلت ضحكة طويلة حذرة .. وردت بإيماءة رأسها ، وشفتها تهمس وهى تتراجع بظهرها حتى وصلت إلى الباب :

ـ نعم يا غزل البنات .. سأتركك الآن ..

١٣

الحل الوحيد

كانت سيارة « حمودة » فى طريقها إلى الإسكندرية لبعض شئون الزراعة والنزهة والشهوات ، كان منزويا فى أحد أركانها ومستلقيا فى راحة والجو دافىء تملؤه روائح الصيف ، وعلى وجهه علامات تفكير عميق يؤكدها أنه يتنهد بين حين وحين .

إن الذى يسوق به السيارة هو « حسن » صديق أخيه بعد أن تعلم هذه الحرفة فى الجيش ، ولم يكن فى المنطقة سائقون ، كلهم قد اشتغلوا بمرتبات عالية عند الملاك الجدد أو فى الجيش الإنجليزى . ومن الغريب أن يكون « حسن » عارفا لمعظم ما يدور فى رأسه ، وكان يلاحظ وجهه المعكوس فى المرآة التى أمامه ويحاول أن يجد شيئا من الملامح بينه وبين « رضا » . فرق بين الوجه المكتنز الدموى الأرعن وبين الوجه الأسمر النحيف الطيب ، وفرق بين الجثة التى يملؤها الغضب لأتفه الأسباب وبين الروح الوديعة لأخيه « رضا » : حقيقة أن له أخلاق الأرناؤوط .

هذا ماقاله « حسن » لنفسه وهو يبتسم ، ومالبث « حمودة » أن تنهد وتقلقل وانتقل إلى الركن الثانى من العربة ، ثم خاطب السائق وكأنه شخص آخر فقد أقلقته الهموم وأحس بحاجة إلى الكلام !

ـ هل تعرف يا« حسن » أننى أصبحت أكره الجرايد ؟

ـ لماذا يا سيدى ؟

ـ صدقنى أننى أصبحت أشعر برعب حين أراها .. إن الطريقة التى أتخذها معى أعدائى طريقة لاتخلو من اللؤم .. طريقة أصبحت معها عاجزا على أن أضعهم تحت يد القانون .

ـ أعرف يا سيدى .. أعرف يا سيدى .. كل الناس يقولون هذا ..

فسكت « حمودة » ثم استطرد :

ـ عندما تسلمت أول خطاب وفتحته وجدت فيه قصاصة من إحدى الجرائد فيها وصف لجريمة قتل ابن لأبيه بسبب الحرمان ، قلت فى نفسى إنهم لن يعودوا ثانية ، لكننى أصبحت أتسلم كل أسبوع أحدث ماينشر فى صحف مصر عن جرائم القتل مقصوصة ومرسلة إلى بالبريد .. وأظن أنه لو كان أحد فى مكانى لماعرف النوم ..

ـ صحيح ياسيدى ..

فتنهد وأشعل سيجارة ثم عاد يقول وهو يضحك فى ألم :

ـ والغريب فى الأمر أننى أكتم كل ما يقع لى ثم أفاجأ بأن الناس هم الذين يخبروننى به .. غريبة .

ـ غريبة صحيح ..

ـ تسلمت يوما ما خطابا من الخطابات المعهودة وعندما فتحته وجدت به قصاصة من جريدة باللغة الإنجليزية ، وبدون تفكير .. عرفت أنها نسخة من القصاصات العربية التى أتلقاها بالبريد عادة .

ـ غريبة .

ـ ولم أكذب خبرا ، فقد أعطيتها لأحد أصدقائى فلما ترجمها كان ظنى فى محله .. ويومها ضحك صديقى وقال لى : « هل أنت مغرم بالجرائم ؟ » كأنه لم يعلم شيئا ..

قال « حسن » فى نفسه : « إنك سيد كل جريمة » ..

ثم ظلل على العربة صمت .. صمت لم يسمع فيه إلا أزيز المحرك . كان متشابها ممتدا كأنه طريق بلا معالم .. وأفكار الاثنين فى السيارة كل فى اتجاه ، وكان « حسن » سعيدا بشقاء هذا الذى أشقى نفوسا بالسلب والذل ، والتهديد ، وكان يقول فى نفسه : يجب أن يتم كل شىء بسرعة لأنه بمجرد أن يتخلص من مشاكله هذه سيتزوج وربما أنجب ، وبذلك تضيع الفرصة .

ـ لاتفكر ياسيدى فالله على الظالم .

وحملق فى المرآة الصغيرة فرأى السيد ينتفض ، وكان عليه أن يردد ماقاله السائق وإلا كان هو الظالم ، فقال فى فتور :

ـ صحيح .. الله على الظالم لكن ..

ـ نعم يا سيدى ..

ـ هناك نوع آخر من الخطابات وصل أول واحد منه منذ ثلاثة أيام.

وهز كتفه فى استهزاء واستطرد :

ــ لم يعد هناك سر ، غدا سيحدثنى الناس عنه ، فلماذا لا أقوله أنا ؟ هل هناك شياطين يعرفون مايحدث ؟ أحسن مايجب أن أعمله هو ألا أبالى .. ألست معى فى ذلك يا« حسن » ؟

ــ نعم ... معك .. وأعداؤك كثيريا سيدى .

ومصمص بشفتيه فبدت بوادر الغضب على وجهه لكنه تمالك نفسه وعاد يسأل :

ــ أعدائى كثير ؟ لماذا ؟ إنها غيرة ، غيرة حقيقية .. أليس كذلك يا « حسن » . أنا لم أسىء لأحد طول عمرى .

ــ أى نعم غيرة ، غيرة من غيرشك .

ــ فتحت خطابا فوجدت به ورقة بيضاء .. فقط ..

ــ بيضاء ؟؟

ــ نعم .. وفى وسطها بقعة أظنها من الحبرالأحمر.. بقعة كبيرة ..

فرد الشاب فى غباء :

ــ حبر ؟ وماذا يقصدون ؟

ــ التهديد بالقتل ؟ فهذا معناه الدم .

وسكت وعاد يقول فى هدوء لا يخفى غليان صدره :

ــ لكن كل هذا لايهمنى ، لو كان رجل آخر فى مكانى ماعرف النوم ..

وسكت ثم ضحك ثم سأل :

ـ هل سمعت أحدا يتكلم عن أخبارأصهارى الجدد ؟

ـ لا يا سيدى ..

ـ غريبة ، إنها أسرة مخيفة جدا .. عندما يعرفون اسمها سيموتون من الرعب .

ـ يجب أن تعجل بهذه المصاهرة فالمثل يقول : العصا السابقة من الجنة .

فرد برعب :

ـ هل تعتقد أن يقدم أصهارى القدماء على جريمة ؟

فقال « حسن » وهو يكتم انفعاله :

ـ الله أعلم .. لكن .. لقد سمعت خبرا غريبا ..

ـ قل ياحسن ..

فتردد ثم قال وهو ينظر إلى الأمام حتى بدا أمام عجلة القيادة كتمثال من الشمع :

ـ إنك يا سيدى لاتصدق أقوال المخلصين .. إننى منذ دخلت فى خدمتك ، وأنا أدفع عنك مالا أستطيع أن أبوح له ..

فظهر الخوف فى عينى « حمودة » وارتعشت السيجارة بين أصبعيه وقال :

ـ قل فلن تخلو الدنيا من رجل مخلص ..

لكنه لم يقل شيئا واعتذر عن الحديث ، فعاد السيد يلح عليه حتى قال له :

ـ هل فرزت حضرتك كل الأوراق التى تثبت ملكية .. آ ..

فرد « حمودة » فى رعب :

ـ ملكية ماذا ؟

ـ ملكية أى شىء تملكه .. أى شىء ياسيدى .

ـ نعم . أنا متأكد أن كل أوراقى موجودة .

ـ حتى مايثبت ملكيتك للعزبة ؟

ـ ملكيتى للعزبة ؟ وهل فى هذا نزاع ؟

ثم تلجلج ثم استرد منطقه وقال :

ـ مؤكد ..

وكان فى الوهلة التى نطق فيها بكلمة « مؤكد » أقرب ما يكون إلى رجل يحاول إقناع نفسه لا إقناع الغير . وطافت بوجهه سحابة سوداء وغامت الدنيا فى عينيه ، وكانت حقول القمح التى كانت تنضج بريح أقرب إلى الخماسين . فصبغ الأفق بلون البن الفاتح وفى هذه الوهلة أحس « حسن » بلذة لاتقاوم ، وذكرالثور الهائج الذى قذف بالكتاب إلى الماء ثم جلده بالعصا هو و « رضا » ليلة هربا منه فى الكوخ . هذا الثور القديم هو الثور الجريح المتهالك فى ركن السيارة والذى عاد يقول من جديد بصوت هامس :

ـ مؤكد .. مؤكد .. لكن .. ماذا سمعت ياحسن ؟

ـ إن صهرك القديم المدعو بالجنايني رجل جبار، لقد حرض بنته « زينب » على سرقة المستند الذى باع به المرحوم والدك أرض العزبة

لك

فقهقه « حمودة » قائلا :

ـ لكن ما رأيك فى أننى رأيته بعينى منذ ثلاثة أيام ؟

فرد « حسن » فى هدوء غريب :

ـ اللغز ليس هنا ياسيدى .. اللغز فى أنهم وضعوا سندا مزيفا بين أوراقك وأخذوا السند الحقيقى .

ـ ماذا .. ماذا ..آ ..

وغاص قلبه بين أحشائه . وكان « حسن » يرقب السحابات السوداء التى تذهب وتجىء على وجهه المحتقن .. ومن خلال الصمت عاد صوت السائق يقول :

ـ الظالم على ربنا .. لاتحزن ياسيدى .. ربما كان هذا دعابة ..

فرد « حمودة » بصوت كسير :

ـ دعابة .. من غير شك هذه دعابة ..

ثم سأل باهتمام :

ـ هل أنت مثلا تصدقها يا « حسن » ؟

فأجاب « حسن » بحماسة :

ـ أنا ؟ أنا ياسيدى ؟ معاذ الله ..

***

كانت صور من قصاصات الجرائد التى تصل إلى « حمودة » تحمل إليه نذر الموت تصل أيضا وبانتظام إلى السيد الجناينى صهره

القديم . ولما تسلم السيد الجنايني تلك القصاصة التي أخذت من إحدى المجلات الإنجليزية وتحمل عناء ترجمتها وعرف الأمرسهر يفكر في طريقة للانتقام الحقيقي من صهره القديم ..

وفي صباح اليوم التالي وهو سائر في أحد شوارع المركز يحس بثقل كل شيء فيه وثقل كل شيء عليه تقابل مع الأستاذ البتانوني وهوعائد من المحكمة وتصافح الرجلان ، وبدا لكل منهما أن يتحدث إلى الثاني في أمرمهم في الفترة اليسيرة التي كان كل من الرجلين يهز فيها يد الآخر أثناء السلام . فقد فكر الأستاذ البتانوني أن يستعين بكل معلومات الرجل وأضغانه ضد « حمودة » إذا ماقدر لـ « رضا » أن يعود فيستعين به ، وقد كان أمله في هذا لم يتضاءل بعد . وفي نفس الوقت طاف بخاطر السيد الجنايني أن يستعين بخبرة الأستاذ ليعرف مدى الطول الذي تصل إليه يد القانون في الموقف السخيف إذ يتلقى بين حين وحين قصاصة صحيفة تحمل نبأ جريمة .. ونطق الرجلان في نفس واحد :

ــ دقيقة من وقتك إذا سمحت ..

ومالا إلى مقهى قريب تطل إحدى شرفاته الأرضية على الحقول وتظللها أشجار مزروعة حول القهوة ، وكان الأستاذ المحامي أسبق الاثنين إلى الحديث فأخذ يسأل عن أسعار الفاكهة وعن الأرباح الضخمة التي جناها السيد في الموسم الماضي ثم عن إحدى القضايا المدنية التي تعثرت منذ سنوات ولم يحكم فيها بعد ثم مال فجأة على أذن السيد

الجنايني وقال له :

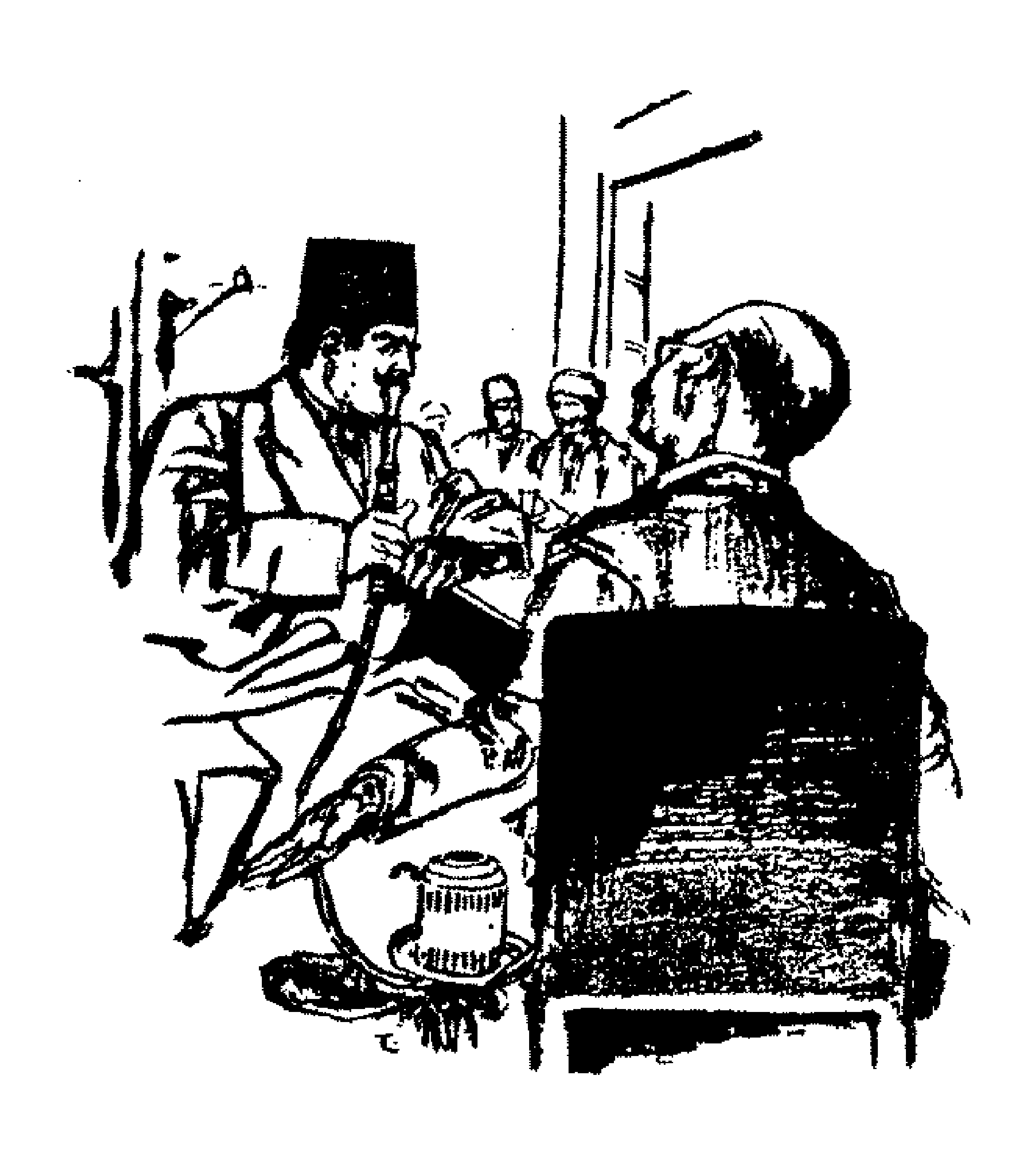
ـ هل حقيقة ما أشيع أن ابنتك سرقت سند ملكية الأرض من زوجها قبل أن ..

ولم يترك الرجل المحامي ليكمل حديثه فقد أخذ يدافع ويقسم بغيظ مكتوم متوهما أن المحامي يستدرجه ليثبت عليه جريمة .. ربما كانت بايعاز من خصمه وصهره القديم ، وفى الوقت الذى كان الأستاذ البتانونى يضحك فى رضا وهدوء وصفاء متوهما أن السيد الجناينى إنما يجيب بما يجب أن يقال فليس من المعقول أن يعترف ببساطة بذلك العمل الخطير . واستطاع المحامى من بين أيمان الجناينى أن ينهى إلى أذنه الحكمة والذكاء الذى تحلت به بنته وأهلها جعلهم يضعون مستندا زائفا بدل المستند الحقيقى ، وأن من الممكن أن يكون هذا المستند وسيلة إلهية لفعل الخير.. الخير فى رد الحق لأصحابه متمثلا فى رجوع « رضا » والخير فى رد « الشر » متمثلا فى الانتقام من « حمودة » .

وتنهد الرجلان ، وطلبا قهوة من جديد ، وتحدثا فى أشياء أخرى كانت بعيدة عن الموضوع لكن .. كان كل منهما يقول فى قرارة نفسه : « ليت هذا صحيحا » وكل منهما يعتقد أن الثانى يدارى الحقيقة عن صاحبه ، ثم انصرفا على أمل أن يلتقيا ..

***

وعندما رقد السيد الجناينى فى فراشه فى هذه الليلة وفكر فى الأمر مليا رأى من صالحه أن يشيع حكاية السند المسروق ، وعندما



هل حقيقة ما أشيع أن بنتك سرقت سند الملكية ؟

أوى الأستاذ البتانونى إلى فراشه فى هذه الليلة وفكر فى الأمر مليا كذلك ، رأى أن من صالحه أن يشيع حكاية السند المسروق ، وعندما أوى ناس آخرون في عزبة « ماضى » إلى مضاجعهم فى هذه الليلة على الخصوص رأوا أن من صالحهم جدا أن يشيعوا نفس الحكاية حتى وصل الأمر إلى حد أن تحدث عنه الغلمان فى العزبة ..

وسهر « حمودة » ذات ليلة يفحص كل أوراقه ، وكم تمنى أن تكون أمه قادرة على تمييز تلك الورقة التي اشتركت معه فى أخذ بصمات زوجها عليها ، لكن أمه كانت قد فقدت بصرها ، أصابها جفاف وراثي فى العينين فتحولتا إلى زبيبتين فى وجهها المكتنز .

ودخل عليها ابنها وحدثها فى الأمرفصرخت فى وجهه إنها لم تعد تريد شيئا ، إنها لم تعد حريصة على أن تملك شيئا من الأرض التى لم تعد تراها :

ـ « اخرج .. لعنة الله عليك وعلى أرضك .. أعطنى بصيصا من النور وخذ طين الدنيا كلها »

وخرج وسهر يفكر حتى غلبه النوم .

وقبيل الفجر كانت النارمشتعلة فى البيت كله وكل الحجرات أصبحت طعمة للحريق وهو محاصر لايستطيع الخروج ، يختنق من الدخان ويصرخ وينادى الفلاحين ، ولكن لا أحد يخف إلى إسعافه . ورأى عند القنطرة التى تفصل بيته الجديد عن دور العزبة ثلاثة رجال حملوا بنادقهم ووقفوا وقد سدوا الطريق على من يريد العبور ، وتجمع

الفلاحون ينظرون إلى النار ليروا مصير « حمودة » وعندما كاد فراشه يشتعل استيقظ من النوم ؟! فقام إلى قلة فى إحدى النوافذ وكرع نصفها ، وجلس يفكر : « أهكذا يكرهنى الناس ؟! لكن من هؤلاء الذين كانوا يحملون البنادق ويصوبونها نحو من يريد العبور لإنقاذى؟ » وخيل إليه أنه رأى الثلاثة : « حسن » و « رضا » و « عادل » وعلى مقربة منهم كانت تقف « بدور » وزوجها الخفير ، وصهره والد « حسن » .

وتنهد واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تذكر « السند » ، أليس من الجائز جدا أن تكون الإشاعات صحيحة ؟

وفى خلال الأيام التالية تلقى رسالة جديدة ، وأحس قلبه أن بها شرا ، شعر كأن الكلمة الأخيرة فى مصيره خطت بهذه الرسالة . شد ما أصبح يكره الصحف والمجلات والإشاعات والدعايات والرسائل ؟! إن حياته أصبحت تعيسة ، هل من الممكن رتق كل هذه الفتوق ؟ « ليتنى أعود صغيرا وأبى معى » . لكنه ما لبث أن شعر أنه ليس أهلا للهزيمة ، لابد أن يسارع بمصاهرة أسرة « السبع » فأبناؤها قادرون على قهر الجريمة .. بالجريمة .

« هذا هو الحل الوحيد . نعم .. » .

وعندما أصبح الصباح شعر بضيق فى صدره ، ظنه بادىء الأمر معنويا ، لكنه ما لبث أن رآه جسمانيا . كان عاجزا عن أن يتنفس، ولم يكن هناك بد من أن يذهب إلى الطبب فاتجه نحو المركز ،

وكانت عيادة الطبيب على مقربة من مكتب الأستاذ البتانونى الذى كان عائدا من المحكمة . ولما التقى بـ « حمودة » تهلل وجه وخفق قلبه وسلم عليه برد شديد وسأله : « لماذا لا يراه كثيرا » ؟

وغمز بعينيه ومصمص بشفتيه ، ولم يطلق كف حمودة كأنه يريد أن يقول له شيئا . وفى هذه اللحظة التى بدأ المحامى فيها يقتنع بأنه لا داعى للكلام كان « حمودة » قد اقتنع بأن الكلام ضرورة ملحة ، فمال مع المحامى إلى مقهى آخر وجلسا يتحدثان فى شئون بعيدة .. وكان « حمودة » عازما على أن يسأله ليعرف مدى الطول الذى تصل إليه يد القانون فى هذا الموقف السخيف إذ يتلقى بين حين وحين قصاصة صحفية تحمل نبأ جريمة ..

لكنه مالبث أن عدل ، وقبل أن يتجه الحديث وجهة أخرى قال له الأستاذ البتانونى :

ـ اسمع ياحمودة .. إننى لاأنكر عليك ..

فهتف مرعوبا :

ـ خير ..

ـ أخوك قد حضر إلى ..

وعندئذ طافت بذهنه كل البلايا والأوهام .. لابد أن الذين سرقوا سند الملكية قد باعوه لأخيه « رضا » .. « آه أيتها السافلة يا ابنة الجنايني .. عملتها فى ساعة أمان وبعتنى لأعدائى ؟ »

ـ أنا أعرف يا أستاذ لماذا حضر إليك .. لكن ..

واحتقن وجهه حتى استحال من اللون الأحمر إلى اللون البنفسجى ، وشرب البقية الباقية فى الكوب المثلج الذى تراكم الضباب على سطحه .

وقال الأستاذ البتانونى فى نفسه :« لابد أن أشربك يا ابن سمسار المواشى » .

ثم أرسل ضحكة مؤنسة خالية من القلق ، وقال لـ « حمودة » :

ــ انت ترى أن أعداءك كثير ، هل تعرف من هم الذين سيشترون نصيب « رضا » من الأرض ؟

ــ لا ..

ــ السيد الجناينى وأولاده .

ــ وما سند الملكية بالنسبة لـ « رضا » .

فقهقه البتانونى ثم سكت ، وداس بقيه السيجارة بكعب حذائه على الأرض غير المبلطة التى نمت عليها الحشائش ، ثم نطق كما ينطق الحكيم المتمرس : « وهل الحق الشرعى فى حاجة إلى وثيقة ؟ إنه ابن الحاج « ماضى » مثلك ياسيد « حمودة » .

ولم يرد « حمودة » . لم يعلق على الموقف . وتأكد بينه وبين نفسه أن « زينب » سرقت المستند ووضعت بديلا آخر زيف بمهارة ..

كان الأستاذ البتانونى ينظر إليه ويغمز بإحدى عينيه ، ويمصمص بشفتيه وكان من المهارة بحيث أنه هو الذى أنهى الجلسة قبل حمودة وانصرف الأخير وقلبه ملىء بالهموم . وبات الليلة التالية يفكر فيما يعمل .. هو .. والآخرون ..

١٤
طيف امرأة

فى هذه الليلة الصائفة عاد عم « جابر » وفى جبينه جرح ، وعلى الرغم من أنه لم يستطع الوصول إلى البيت إلا فى ساعة متأخرة حتى ضمد جرحه فى قصر العينى فإنه عاد بادى المرح ، فقد اشتبك فى معركة مع بعض جنود الإنجليز على مقربة من المستشفى ..

ولم يكونوا فى هذه المرة قد سخروا منه ولكنه رأى ثلاثة منهم يترغمون بأغنية مطوطة ويتساندون من السكر . وعند ميدان كلية الطب بدا شبح امرأة تعبر الطريق متجهة إلى زين العابدين . ومع أن الوقت لم يكن متأخرا فإن الجنود بدأوا يطاردونها ، ولاذت بالحائط فى خوف، فرأى أحدهم أن فرصة اقتناصها سانحة ، وساعد على هذا الخاطر تلك الظلمة التى فرضتها الحرب على مدخل الشارع الخالى من الدكاكين .

كان عم « جابر » يرى الحادثة منذ بدئها ، ولم تلبث المرأة أن صرخت فلما اشتبك معهم فى العراك لاذت هى بالنجاة ، ثم ما لبث الأهلون أن تجمعوا وهرب العسكر بعد أن جرح عم « جابر » .

كان يحكى ماحدث وهو يضحك :

ـ لقد اشتبكت معهم مرتين ، مرة من أجل رجل ، ومرة من أجل امرأة .

وفى مساء اليوم التالى كان عم « جابر يعرض القصة على « رضا » فى إطار جديد زوقته المباهاة ، لكنها كانت مشوبة بخفة الروح، وعندما فرغ « رضا » من قوله وهو يضحك : « أنا أتنبأ بأنه سيكون لك يد فى تخليصنا من الإنجليز ياعم جابر ـ كان جرس الباب يدق . ولم تقم « ثريا » من مكانها ، لكن مالبثت إحدى أخواتها أن دخلت وقالت أن البواب يسأل عن « رضا » !

وكان الضيف هو « حسن » وتعانقا وصعدا إلى فوق ، ولما استقر بهما المكان رأى « رضا » على وجه صديقه أمارات القلق ولم يلبث « حسن » أن أخبره باختصار بما جرى فى العزبة فى الأيام الأخيرة ، وأن إشاعات تتردد بأن الأستاذ البتانونى سيكون وكيلا عن أبناء السيد الجناينى فى شراء نصيب « رضا » من الأرض ، لأن « رضا » سيبيع لهم ، وإشاعات أخرى تقول إن الأستاذ البتانونى سينوب عن « رضا » نفسه وسيأخذ عشرين فدانا باسم شقيقه .

والمهم فى الأمر أن اشاعة رابعة همس بها من يحب الحق ومن يحب الباطل ، همس بها الناس جميعا ـ تقول : إن « حمودة » رأى أن الطريقة المختصرة لحل هذه المشاكل جميعا هى أن .. » وسكت ولم يكمل ولمعت عيناه ببريق مخيف ، وأتى إلى المكان صراخ امرأة من

الحي المجاور ، ثم غطى سكون ، وعاد « حسن » يتكلم : إنه يعرف أين تسكن .. »

وتذكر في هذه الوهلة كل الجروح التى يعرف أصحابها . تذكر عم « جابر » المرأة التى كانت ستسبى ، والذين يحاربون في الصحراء فى سبيل مطامع رجل يسكن « برلين » وبقع الدماء التى يمتصها الرمل . وتذكروالده حين كان يركب حماره ويطوف حول العزبة فى حر يولية ، والعرق يبلل كتفيه ، ومثواه في المقبرة الصحراوية . وأمه .. والدنيا كلها ..

وأفاق و « حسن » يضع يده على كاهله . وقام واقفا وقال له : « يهم أن تحافظ على سلامة نفسك ، وإذا استطعت أن .. »

كان يريد أن يقول له : غيرمسكنك ، لكنه لايعلم مقدار العناء الذي سيتكلفه ، و حتى لو كان « رضا » قادرا ماديا فقلبه عاجز عن أن يفعل . فلا أرض وراء أسوار « فيرونا » .. كماخيل لروميو من قبل ..

***

ولم يخف جرح عم « جابر» بالسرعة التى كانت متوقعة فعاد إلى المستشفى . وبقى أنس العنبرطوال المدة التي أقامها ، لكن هذه الإقامة أتاحت لـ « رضا » و « ثريا » ساعات لقاء طويلة ، فقد كانت ممَاشى المستشفى وممراته عندما يكونان عائدين بالليل تملأ روحهما بالرهبة التى تجعل النفس نزاعة لطلب الأمان ، وعندما يخافتان بصوتهما ، يجدان

نفسهما وقد انساقا إلى المناجاة .

وفى الليلة التالية لحضور « حسن » وعودته من فوره إلى الريف كان « رضا » و « ثريا » فى زيارة عم « جابر » ، وكانت علامات القلق والضيق تبدو على « رضا » وأثناء عبور الممر المؤدى إلى الحوش الفسيح الواقع أمام كل الأجنحة ، أمسك بكفيها .

وكانت كفه باردة مع أن الدنيا صيف ، وضغط على أصابعها فتأوهت ثم ظلت كفها فى كفه ، واستشعرت معنى القلق عندما التقت عيناهما ، ولما وصلا إلى الفناء الكبير أشعرهما الليل وسعة المكان بالوحدة فقال « رضا » وهو يأخذ ذراعها تحت ذراعه ويضغط عليها بشدة :

ـ عندى خبر جديد ..

ردت وهى تغالب ضحكها ، فقد كان مفهوما أنه سيحدثها عن الزواج لأن كل من حولهم تحدثوا عنه :

ـ إننى سأعملها حالا يا« ثريا » ..

ـ حالا .. حالا ؟

ـ نعم يظهر ذلك ..

ـ لاتفكر فى شىء من هذا حتى تنتهى مشاكلك أيها الـ .. أف .. أف .. وضغطت ذراعه . وتلاصقا وهما ماشيان فكادت أقدامهما تتصادم . عندئذ نسى ماكان يريد أن يقول . كان يريد أن يخبرها بأحاديث « حسن » ، لكن لمسة الحب جعلته يتريث . وقبلها فى خدها

وعنقها وهما يواصلان السير حتى إذا اقتربا من البيت بدت له حيلة ، هي .. أن يسبقها إلى حجرته وأن تلحق به ليكون الوقت الذى سيقضيانه محسوبا على الوقت الذى قضى فى الخارج ..

وشعرت بالخوف وبلعت ريقها ولم ترد ، وأحس « رضا » بالخجل من الموقف . ولما خلع ملابسه وجلس خلف الشباك تمنى إلا تجيبه إلى ما طلب ، أحس أن اليأس الذى ملأ نفسه منذ البارحة سيجعل منه كائنا سفليا يلوث أي نقاء ، فلم تعد الدنيا فى نظره أكثرمن بركة سمك يعيش بعضها على بعض فى هذا الماء الفاسد .

ولم تجىء « ثريا » فتنهد فى ارتياح ، ودعا الله أن يكتب لها السلام فهو أعز نعم الدنيا تلك التى يظللها ليل لاتضيئه إلا النيران . كأنما كان خائفا أن يعذبها مرضه أوينقض عليها من القفص المفتوح الذى حبس فيه ! وهو أن قدر له أن يفعل فإنه سيموت كمدا .

واستوقفته كلمة « الموت » فتذكر « حمودة » .. ذلك الذى لم يستطع أن يشعر أن الدنيا قادرة علي أن تسعه هو وأخاه ! وضحك بصوت عال ، وخيل إليه بعد أن صمت أن لضحكته امتدادا .. امتدادا رقيقا بجرس ساحر . ولم يصدق أذنيه ، ولكن واقع الأمر أن « ثريا » كانت عند العتبة وهمست كأنها تدلله :

ـ لماذا تضحك وحدك ! أيها المجنون ؟

فلم يرد ..

نظر إليها وظل جالسا فى مكانه واخضلت عيناه بالدموع ، وكان

على « ثريا » أن تفعل واحدا من ثلاثة : أن تسعى إليه حيث يجلس أو تجلس في مكان آخر أو تعود أدراجها ، وجلست على حافة الفراش بملابس الخارج فقام وجلس إلى جانبها وسألته في لهفة لاتخلو من الحزم :

ـ لماذا تبكي ؟

ـ لأني سأفقدك ..

فردت في عجب :

ـ أنا ؟ مجنون .. من قال هذا الخبر ؟

ثم ابتسمت في طفولة واستطردت :

ـ « غزل البنات .. ياغزل البنات » .

فأطرق ، ثم قال وكأنما يستملي ماينطق به من شخص آخر :

« إنني منتدب لمهمة .. مهمة قصيرة شاقة .. هي أن أقتل أو أقتل » .

فضربت على صدرها وفتحت فمها ، وهزته بيدها كأنما لتوقظه ، فرفع إليها وجهه ثم وضع رأسه على كتفها وقال وقد طوقها بذراع :

ـ صحيح .. إن أعداء الكثيرين اتخذوني سلاحا ليحاربوه بي ، فهو يريد أن يرمي بالورقة الأخيرة .

هتفت بخوف :

ـ أنا معك .. لايمكن أن تكون وحدك وقت الخطر يا« رضا » لكن أرجوك أن تترك هذه الأفكار الجنونية ..

ـ يظهر أنك لاتفهمين ماتقولين ..

ـ بالعكس .. انت الذى لا تفهم ماتقول .. نحن الاثنين فى خيمة ولن تسقط على رأسك دون رأسى .

وغابت المشكلة وحلت محلها سكرة الحب شأن ساعات الخطر وخوف الفراق .

فاحتضنها وألقاها على الفراش ، فهتفت وهى تدفعه عن نفسها :

ـ لاتخطىء الوقت .. المناسب .. دعنى ..

فجلس وقد حمل رأسه بين كفيه وهتف بيأس :

ـ « ثريا » .. إننى تعيس ..

من خلال أهدابه رأى خيالها وهى تسوى شعرها وتقطع المسافة إلى الباب لتخرج ، وعند ذلك قال وكأنه يخاطب شخصا آخر فى الحجرة :

ـ كنت على وشك أن أعديها بتعاستى ..

***

ومرت على هذه الحوادث بضعة أسابيع .

كانت عزبة « ماضى » تتوقع كل يوم حدثا بعد الحريق الكبير الذى التهم قمح السيد « حمودة » وكان ينظر يومئذ إلى أيدى الفلاحين وهى تقاوم النيران وهوغير مقتنع بإخلاصهم . وتتخايل أمام خاطره رؤيا البيت وهو يحترق وفوهات البنادق التى حظرت على الناس عبور القنطرة ، وبات موقنا أن بين رجاله من يعملون لحساب

الغيرففارقته البقية من الأمان .

وفى القاهرة كان هناك حوادث تشغل الناس فى كل مكان بدت مظاهرها مخيفة ، والناس يتساءلون فى همس لا جواب له :

« ماذا يكون المصير عندما يدخل الألمان مدينة الإسكندرية ؟ إنهم منها على بعد ساعات ؟ »

شغل أفكار الفلاحين فى الوجه البحرى هو ماء الفيضان فقد كان النيل مرتفعا يجرى فى أبهته المشهورة نحو البحر حيث تقف مدينة الإسكندرية فى شجاعة منذ قيام الحرب ، وقد سمع الفلاحون همسات عن نية الإنجليز إغراق الوجه البحرى بماء الفيضان لعرقلة تقدم الألمان..

وكان هذا شيئا مخيفا يعيد إلى الذاكرة قصة الطوفان .

وكان سكان « عزبة ماضى » يتناقلون هذه الأنباء بحذر وخوف وميل إلى التكذيب فى الوقت الذى كان « رضا » قد سمعها من عمال المطبعة ، ورأى كثيرا من الجنود المقيمين فى القاهرة يتحولون عن أماكنهم فى حركة متسللة خائفة بدت حينا على شكل استعداد وحينا على شكل هروب .

وتهامس الناس بأن الإنجليز سيدمرون منشآت العاصمة الجميلة قبل أن يتركوها للألمان ، وتكلم الناس جميعا بإلاحكام مصر وبات سكان القاهرة ذات ليلة من صيف ١٩٤٣ وهم متوقعون أن يستيقظوا على أحداث هائلة .

وكان عم « جابر » خلال هذه المدة قد استرد عافيته وحمل من ذكريات المعركة وساما هو أثرجرح في جبينه على شكل هلال وكان كلما وقف في إحدى محطات السكة الحديد في أى خط من خطوط مصر ، نادى بعض من يعرف ثم يطل من القاطرة ، في ملابسه الزرقاء ويرسل ضحكة صافية بيضاء من قلب كأنه لم يعرف الهم :

ـ ولد يا.. تعال .. تعال ياولد .. لترى هذا الوسام وتتعلم يابنى..

ويشير إلى أثر الجرح ويتبادل السجاير والتحيات ثم يفتح الصمام البخاري الذي يطلق صفير القطار وهو يقهقه .

وعندما عاد من سفره الأخيركان يحس أن الدنيا على وشك أن تتغير ، وعندما كانت بنته « جميلة » ترقص وهى تعبرالصالة ، لأن موسيقى مرحة من الراديو أثارت إعجابها ، كان يغمض عينيه وينهر زوجته التى تنهر البنية قائلا بصوت لايسمعه سواها :

ـ إن الدنيا ستتغير.. حالا .. حالا .

ويشمشم ويهمس : « ألاتشمين » ، أنا شخصيا اشم رائحة التغير..

أما« ثريا » فقد أصبحت بالنسبة لـ رضا » خلاصة كل شيء ، ورمزا لكل شيء : خلاصة النساء ورمزا للحب ، خلاصة لكل مايملك إنسان .. خلاصة مايشفى من العذاب ، ورمزا لأيام المستقبل ، ولذلك فإن سخريتها من مخاوفه جعلته لايفكر فيما قد يتهدده من أخطار ، بل أخذ يفكرجديا فى السفرللقاء الأستاذ البتانونى مرة أخرى ، وعن له

ذات ليلة أن يذهب ليلقى « حمودة » وجها لوجه ، ويتكلم معه بأي لغة ليسدل الستار على هذه المأساة .

وقالت له ثريا في هذا اللقاء :

ــ مهلا .. إن « حمودة » مثل شيء يسقط من أعلى منحدر فلايهم أن تفكر في دفعه من الخلف ..

فنظر إليها في حبور حاول أن يداريه ، وخيل إليه أنها أم تحول بين ابنها وبين الخطرفأمسك بيدها وطبع عليها قبلة وسألها :

ــ ماذا يحدث يا « ثريا » لو أنك فقدتني ؟

فمطت شفتها باستهزاء هزه من العجب ، وظلت نظرته الحائرة تطلب الجواب حتى قالت :

ــ لن أشعر بشيء .. طبعا .. لأنني سأفقد .. روحي .

وكان الوقت عصرا وحديقة الميدان تعج بالناس ، ولم تكن الشمس قد غابت بعد والمنظر تحت عيونهم من فوق أشبه بمولد على وشك الانفضاض ، فقد كان الناس يحاولون أن يعودا إلى بيوتهم قبل حلول الظلام .

وودعته « ثريا » واتجهت إلى السلم ، وكان السطح مضيئا بنور الشفق .. شفق ما قبل الغروب ، فأحس بعدما سحبت كفها من كفه بشيء يسسقط على الأرض كان له صوت هامس لايسمع إلا في لحظة سكون . فنظر فإذا فص خاتمها قد سقط من فوق كرسيه الذهبي .. فص من الياقوت أحمر صاف ، وتسابقت إليه الأيدي ، وكانت يده

أسبق إليه ، أطبق عليه كفه ، فحاولت أن تستخلصه منه وقاومها ولكنها كانت على وشك أن تغلب ، عندئذ غلبه الضحك فقذف به إلى فمه ، ثم أطبق عليه شفتيه .لم تدر « ثريا » لماذا اعترفت بالهزيمة فهبطت وهى تقرقر بضحك مكتوم كطائر يمرح وقالت له :

ـ أنا أعرف ماذا تريد .. لكن .. غدا سآخذ بثأرى ..

وأشارت بكفها تودعه وغابت عن عينيه .

لم يطق أن يبقى فى حجرته بعد ذلك ، أحس أنه محتاج إلى الهواء ، وود لوأنه هناك فى الريف عند أمه ، ليقف على الأقل فوق سطوح الدار ويرى ذوائب النخل وأبراج الحمام فى وطنه المسلوب . وحاول أن يعمل أى شىء،فكر أن يدخل الحمام أو أن يطهو أو أن يذهب إلى القهوة . وأخيرا خطر له خاطر لماذا لا يذهب إلى الحلاق ؟ هناك يقص شعره ويقرأ المجلات ويسمع آخر الإشاعات وأخبار لسياسة .

واستراح لهذا الخاطر، لكنه تمدد فى الفراش ، رقد وعيناه إلى السقف ، والنافذة البحرية مفتوحة تجلب رائحة الصيف والخضرة وأرض الجنينة والفيضان ، وفكرفيما عسى أن تفعله أمه الآن .. وماذا عسى أن يفعله « حسن » ماذا يا ترى لو اكتشف « حمودة » أن « حسن » سر من أسرار بلواه ؟

ولم يدر « رضا » بعد ذلك شيئا . أخذته سنة من النوم استيقظ بعدها فإذا الساعة قد جاوزت التاسعة .

لبس ونزل مسرعا ، وعند باب السلاملك قابلته « جميلة » فسألهاعن الأسرة فعلم أن عم « جابر» قد عاد للراحة وأن « ثريا » فى زيارة خالتها وأنهم يقلون سمكا .

ثم أخذ طريقه إلى الخارج .

كان دكان الحلاق خاليا من الناس ، وقد أسدلت على بابه الزجاجى المدهون بالأزرق ستارة من قماش داكن . وقابله الأسطى بالترحاب وقد بدا عليه سرور يوم رابح ، وجلس أمام المرآة وترك شعره للمقص وأذنه لفم الأسطى يثرثر .

وكان يشعر باسترخاء مثل الفتورالذى يعقب التعب ، وكأن مشاكله قد صفيت أو متاعبه وهم زال . لم يكن سعيدا لكنه كان مخدرا .. فى استهانة بكل خطر حتى لو استدعى ليلقى حتفه ..

وكان الحلاق يتحدث عن فضائح الإنجليز فى الشوارع وميدان الحرب ويفرض أن مصرتملك من الأسلحة مايكفى ثم يتحدث عن النتائج الباهرة التى سوف يحققها المصريون .

وقطعت عليهم أفكارهم ضحكة صافية كأنها من قلب لم يعرف الهم ..

كان عم « جابر » داخلا بعوده الربعة وجسمه السليم فى جلباب من التيل الأبيض وقد بدا وجهه الأسمر نامى شعر الذقن . وتبودلت كلمات الترحيب ، ورأى « رضا » فى المرآة بريق الحسب فى عينى الرجل . وجلس عم « جابر » على الكرسى الثانى وجاء أسطى كبير

السن ليحلق له ، فتبادل معه عم « جابر » أحدث النكت .

وفى هذا الصالون الواقع فى شارع قصر العينى على مقربة من مسكن الرجل والشاب كان أمام كل مرآة رجلان وكانت نظرات الرجال الأربعة تتلاقى عبر المرايا أثناء الحديث ، وأزيز سيارات الجيش الرعناء يقلق السكون وأصوات « موتو سيكلات المراسلة » يمرق كشريط من الرصاص المتصل فيغطى على أحاديث الرجال وهم يتكلمون فى بعض الأحيان .

ومر الوقت ، كانت الساعة قد جاوزت العاشرة حين بدأ الحلاق المسن فى تهذيب شارب عم « جابر » وعند ذلك أشار عم « جابر » بيديه للرجل اشارة تدل على الأهمية فتوقف الرجل عن العمل وعلى فمه ابتسامة من يتوقع كلمة لطيفة . قال عم « جابر » باهتمام والكل ناظر إليه :

ـ اسمع ياأسطى عثمان ، هل تعلم ماذا ستعمل الآن ؟

فأومأ الرجل باحترام مسرحى :

ـ نعم سأقص أعظم شنب فى الدنيا .

فرد « جابر » من خلال الضحكة :

ـ عظيم .. هل علموك حاجة اسمها « التاريخ »

رد الأسطى وهو يحرك المقص على الفاضى فيسمع صوته :

ـ نعم قليلا منه ياسيد « جابر » ..

ـ عظيم .. هل سمعت عن موقعة حربية اسمها موقعة

« الخطاطبة » يا أسطى عثمان ؟

فبانت الحيرة على الرجل ثم جازف لينقذ الموقف قائلا :

ـ نعم .. التى هزم المصريون فيها نابليون .. تمام ؟

فضحكوا كثيرا ، ولما أفاقوا قال عم « جابر » :

ـ اسمع .. سأصحح لك معلوماتك ، موقعة « الخطاطبة » هى التى هزم فيها البطل المصرى أبو شنب فضة .. عساكرالإنجليز فى الحرب العالمية الثانية .

فبدا الفهم أخيرا على وجه الأسطى عثمان .

ثم أخذ الحديث يهدأ والجو يميل نحوالسكون ، وكان عم « جابر » يحملق فى المرآة إلى الجرح الهلالى والشارب الهلالى والشارب الغزير فى الوقت الذى اندفع فيه عامل من ورشة نجارة مجاورة وهو يصرخ :

ـ الحق ياعم « جابر » .. الحق ياعم « جابر » ..

والقى فردة حذاء من الجلد الرمادى على الأرض ، نظر الرجل إلى لونها وكعبها العالى فدارت به الدنيا ، فى الوقت الذى أخذ « رضا » فيه يجرى مسعورا فى شارع قصر العينى ويصرخ فى الظلام :

ـ أين ذهبوا بها ؟ .. أين .. أين ؟.. أين ؟ .

***

بقيت كلمة « أين » تتردد فى أفواههم وأذهانهم طول الليل وبدا الأمرغير معقول فى خواطرهم ، غير معقول أن يخطف جنود الإنجليز عذراء مصرية اسمها « ثريا » ويهربوا بها فى سيارة .

كانت مارة على ورشة النجارة فعرفها النجار ثم مالبث أن سمع صراخها ، ثم أخذ المنظر يجرى كأنه محموم .. ولما يئس الرجل من اللحاق بهم عبرفى الطريق بفردة حذائها وكان والدها قد مر به وهو فى طريقه إلى الصالون ، وبذلك انتهت القصة .

ولم يكن عم « جابر » قادرا على تصور الموقف ، أهو عار ؟ أم بطولة ذلك الذى حدث له ؟! لكن غاية علمه أنها إحدى كوارث الحرب، وقد أصابته مثل كارثة « طوربيد » باب سدرة فى الإسكندرية تلك التى استأصلت أسرا من جذورها .

ويكى والقطار يقطع به كل الطرق ، وهو يخيل إليه أنه سيلقاها على أى محطة ، لأن اليوم الرابع جاء ولم تعد « ثريا » .. جروا بها ناحية معسكرات الأهرام .. فتذكر عم « جابر » ماقاله عثمان الحلاق عن هزيمة نابليون فى موقعة الخطاطبة ، فضحك وهو يبكى .

أما « رضا » فقد كان بادىء الأمر مذهولا ثم شعر فى اليوم الثالث أن كل شىء قد ضاع وأن صفقة الحياة بالنسبة إليه لاتعنى شيئا. ولم يكن حتى هذه اللحظة قادرا على أن يلقى أحدا من أسرة « ثريا »، لم يكن يتصور أن يقول لأحدهم كلمة رثاء .

ودخل المساء .. مساء اليوم الرابع .. وتقدمت خطا الليل ، وكان « رضا » منذ ظهر هذا اليوم يرى أنه لابد أن يعمل شيئا . وما أن انتصف الليل حتى هبط السلم وتحت سترته شىء ملفوف .. وخيل إليه بعد أن خطا أول درجة من عند السطوح أنه يسمع صوتا .. وتوقف ..

ونظر فى فضاء السطوح فلم يجد أحدا ثم رفع بصره إلى السماء .. لم يكن فيها ساعتئذ إلا النجوم وتحتها الألسنة البنفسجية للأنوارالكشافة، واستأنف سيره وأحس أن دهرا قد مضى وهو يهبط ، ومر على الأبواب كلها فلم يسمع أدنى صوت .. « كلهم نائمون فى هناء .. إلا قلبى » ، وعند باب شقة عم « جابر » توقف ، لم يكن هناك صوت ولاضوء ، وطافت بخاطره ذكرى الليلة الأولى ، ليلة رأى « ثريا » فى ثوب ليلى واسع وجسمها يتثنى .. وذكرحادثة الخطف فكاد يصرخ .. وتذكرالموقف الأخيرساعة اغتصب منها فص الياقوت .. « لقد سقط من على عرشه . وهذا فأل » ثم قولها هى : سآخذ بثأرى » ، ونزل بقية الدرجات وكلماتها تملأ أقطار قلبه .

وخرج إلى الشارع ، كان الطريق طويلا ممتدا وقضبان الترام تلمع فى البقع المضيئة ، واتجه نحو ميدان قصر العينى ، وهاله السكون العادى المخيم على المكان ، وعلى بعد مائة متر جاءه صوت ضحكات مضطربة أصحابها ليسوا فى وعيهم وشيئا فشيئا وضحت خطواتهم الثقيلة فى الأحذية العسكرية . كانوا من الإنجليز .. وكانوا ثلاثة . وعبروا أمام المستشفى فى اتجاههم نحو فم الخليج ، وهو يتابعهم على بعد . وفهم ماذا سيعملون بعد دقيقة فجرى وسبقهم ، وهناك فى الميدان الصغيرأمام كلية الطب رقد فى المتنزة الخالى من النورالملتف بالظلمة على مقربة من باب المراحيض الواقعة تحت الأرض .

وجرى الجنود الثلاثة وهم يضحكون ، كانوا يتحدثون عن البيرة

وشربها بكثرة وهبط منهم اثنان وتخلف الثالث قليلا وبينما كان يهبط ، وعندما وازى رأسه سطح الأرض وقف « رضا » وأخرج القضيب الحديدى وضربه به فى مؤخر رأسه ، فتدحرج من على السلم فاقد النطق ، ولم تمض نصف دقيقة حتى انسرب فى الظلام ليأخذ إلى البيت طريقا آخر .

وعندما عاد رأى سلاحه ملوثا بالدم فأحس بعض الراحة .

وكانت الساعة قد بلغت الواحدة . والنوم لم يحم حول جفنه وشعر بحنين إلى عم « جابر » أن يرى القوة والمرح وأثر النكبة فى البناء المتين، لكنه مالبث أن سمع خطواته تعبر السطوح ، وطرق عليه بابه ففتح ، فدخل وعلى وجهه علامات غامضة ، والجرح الهلالى على مقربة من زبيبة الصلاة ، وتعانقا فى صمت ، وحاول كل منهما جاهدا أن يحبس دمعه ، أحس كل أن الدموع حرام ، وجلس كل تجاه الآخر ، وشعرا أن كل منهما يدخر سرا سيبوح به ، فقال « رضا » بعد صمت :

ـ تشرب شاى ياعم « جابر » ؟

وكان هذا « فتح كلام » فهز الرجل رأسه وقال وهو يبتسم فى مرارة :

ـ ولا قهوة .

وخيم الصمت ثم عاد الرجل يقول :

ـ تعرف .. أين كنت ؟

ـ لا .

فأخرج عم « جابر » من بين ملابسه قضيبا من الحديد مكسوا بالكاوتش ، فقد كان فى نفس المهمة فى مكان لآخر .

وعض « رضا » شفته السفلى ثم قدم إليه سلاحه ..

ونزل الرجل بعد قليل ، لم يكن هناك شيء يقال . أصبح مفهوما أن بعض القضايا لا يجدى فيها القول . حتى ولو كان بليغا .

وخف العبء على قلب الرجل حين نظر سكان الحى إلى مأساة « ثريا » نظرة حقيقية على أنها كارثة وطنية لاحادثة « عرض » .أما « رضا » فقد أصبح الطريق أمامه ذا شعبتين ، شعبة فى الريف وشعبة فى المدينة . لقد خطف وطنه وقلبه . فماذا بقى ؟

وأخذ أهل الحى ينسجون حول « ثريا » أخبارا وأساطير ، فكان عم « جابر » يفاجأ وهو سائر بمن يستوقفه ويهنئه بعودتها ، وبعضهم يقول إنها فى مكان ما وتراسل أباها لأنها خجلة ، وبعضهم يقول : لقد ظهرت فى الإسكندرية فتاة عجز البوليس عن القبض عليها ، تطلق النار على جنود الإنجليز كل ليلة فى مكان جديد .

ومن خلال هذا كله أحس الأب بوجود « ثريا » ، لكن حقيقة الأمر أن « ثريا » كانت مجهولة المصير .

١٥

مفترق الطرق

كان « رضا » كل ليلة يشعر أنه سيخرج ولايعود لكنه كان يفاجأ بوجود نفسه وهويحملق في المرآة على الحائط كأنه يرى شخصا غريبا عنه قصة قلبه تهز كل مشاعره . وسأل نفسه ذات ليلة سؤالا هاما : « إلى أي الجبهتين يجب أن يوجه قواه جبهة الريف أم جبهة المدينة ؟ »

ولم يستطع أن يجد الجواب فقد بدت كل جبهة وكأنها سبب فى وجود الأخرى ، كحلقة مفرغة لانهاية لها أو دوامة تستغرق الحياة كلها . ورسخت هذه الفكرة فى ذهنه كعقيدة لقنها من قديم وأغمض عينيه ونام ، وعندماوصل إلى المطبعة وقت الصباح سأل عن أحد زملائه فعلم أنه استغنى عنه لأن العمل يتناقص بحكم عدم وجود الورق .

فشعر كأن السهم موجه إليه .

أصبح يحس بآلام غيره أكثر من قبل ، وشعر أن الوجود لايستغنى عن شيء موجود لأن كل شيء له مهمة ، وإذن هولم يخلق اعتباطا ولا أى من الناس .

وأخذ إجازة ثم ركب إلى محطة القاهرة واستقل القطار إلى الريف..

كان كل شيء يجرى بطريقة حلم تقطعه لحظات من اليقظة ، لم يكن فى عزمه أن يفعل أكثرمن الذهاب إلى قرية أمه .. وهو يود أن يعود بأمه ، فهو لايستطيع أن يحيا بقلب واحد ، شأن كل من فى الدنيا وإن غاب ذلك عنا ، كانت الصحراء تبدو أمامه مترامية واسعة مبهمة تحمل أسرار الذين عبروا إلى مصر ليغتصبوها ، وأسرار والده وأخيه .

وخيل إيه أنه تائه ، إنه لايعرف ماذا سيفعل اليوم .. « نعم ماذا سأعمل » ؟

واستسلم لهدهدة القطار حتى خيل إليه أنه نام ، ولما وصل إلى المركز الذى سيأخذ منه طريقه إلى قرية جده لأمه أو إلى عزبة « ماضى » . وقف فى مفترق الطرق حائرا ماذا يصنع .. وواصل سيره فى الشارع الرئيسى إلى حيث تقف العربات وسيارات الأجرة .. ووقع بصره على اللافتة التى تحمل اسم الأستاذ البتانونى فى الميدان الصغيرأمام الصيدلية الوحيدة وعيادة طبيب المركز .

ووجد فى الميدان زحمة غيرعادية فكان اليوم يوم السوق يكثر فيه الوافدون من القرى المجاورة .

وتلفت « رضا » حوله ، وفى هذا اليوم ود لو أنه التقى بـ « حمودة » .. إن ما بينهما سينتهى فى دقيقة أو دقائق ما دامت الدنيا فى رأيه لاتسع اثنين .. وطحن أضراسه وعبر الميدان إلى باب

المكتب ثم دخل على الوكيل .

كانت الحجرة غاصة بالناس كما هي العادة . ورأى في هذا اليوم أيضا ذلك الشاب الذي نسي غليونه بين أسنانه ومال بعنقه كأنه مذهول وإلى جواره الريفي والحارس فأحس أن بينهما قضية مشتركة .

وعندما قدم « رضا » نفسه للوكيل ـ هتف مرة أخرى :

« قضية مصر.. لحظة واحدة » .

وجلس ينتظر دوره . ولم يمض وقت طويل حتى دخل رجلان عرفهما « رضا » لأول وهلة هما « حسن » و« حمودة » ، ورأى « حسن » صديقه فأومأ له أن يغادرالمكان ، وبدا القلق في عيني الوكيل لأنه لم يفهم المقصود من هذا اللقاء ، وخرج « رضا » من المكتب ولم يعرفه « حمودة » الذي ظل بانتظار دوره ليدخل على الأستاذ البتانوني .

وهمس له الوكيل وهو داخل : إن أخاك كان هنا .. ألم تره ؟

وتلفت « حمودة » وقد تجمع في وجهه دمه كله لكنه سمع الوكيل وهو يقول له : لقد خرج .. هل ستتفقون ؟

وكان هذا ترجمة لرغبة الأستاذ البتانوني ألقاها الوكيل بلا مبالاة في أذن « حمودة » لتفعل فعلها ، وعندما دخل « حمودة » على الأستاذ ألفاه متهلل الوجه لكنه يبدو جد مشغول وأكب قليلا على بعض الأوراق ثم رفع رأسه وقال لحمودة بابتسامة مختصرة :

ـ مبروك ..

وكان رد « حمودة » امتقاعا وصمتا ثم سؤالا عن سبب التهنئة ،

فقال المحامى :

ــ بلغنى أن المصاهرة الجديدة ستتم حالا وأن أسرة « السبع » قد رحبت بك .. أخيرا !

وعاد يفحص بعض أوراقه ويراقب وجه الفريسة بنظرة من تحت لتحت ، فقد كان منذ يوم واحد مع رب الأسرة ذاتها ولماسأله عن الإشاعة نفاها الأب بيقين فقال له الأستاذ البتانونى يومئذ :

« كان هذا ظنى فمن العار أن تصاهر أسرة السبع ابن سمسارالمواشى القديم فضلا عن أنه مطارد ، وأبناء السيد الجناينى لن يدعوه يهدأ .. إلاإذا كنت مولعا بمصاهرةالمشاكل » .

وضحك الأستاذ يومها كأن الأمر لايعنيه ثم تأكد لديه أن هذه المصاهرة لن تتم لأنه تعهد هذه القضية بالعناية .

كان « حمودة » ينفخ الدخان وهو جالس بقلق وعينه معلقة على الآية فوق صورة الميزان « إن الله يأمربالعدل والإحسان » .ومن خلال دوامة الماضى التى لفت « حمودة » سأل « حمودة » الأستاذ :

ــ من قال لك إنها ستتم ؟

رد بعدم مبالاه وبطريقة تزرع الشك وتوحى بالتهكم :

ــ سمعت ..

ــ ممن ؟

رد وهو يفتح درجا ويفتش فيه :

ــ ممن ؟ منهم يا أخى .

قال وهو يخرج مسدسا من درجه بطريقة من نسى شيئا بين الأوراق ثم أعاده إلى مكانه :

ـ وهل هناك غيرهم ياسيد حمودة ؟ المجرمون ..

فسأل « حمودة »مستطردا من القلق :

ـ وماذا يهمهم من هذا .. مالهم ومالى ؟

وقال الأستاذ بعد أن استدار إلى الناحية الأخرى من أدراج مكتبه يفتحها واحدا بعد واحد . قال فى شرود وكأنه لايعنى شيئا :

ـ آه .. سألتنى .. يهم جدا أن تكون ضعيف الجناح غارقا فى المشاكل وبذلك يمكن بسهولة أن يأكلوك ..

هتف كأنه لسع :

ـ يأكلونى ؟

فضحك الأستاذ كمن يعتذر لكن بلامبالاة :

ـ لاتؤاخذنى .. فلتة لسان .. لكن النصيحة دائما فلتة من فلتات اللسان يابنى .. هيه .. هذا عيب .. عيب المهنة بين المعارف والأقارب . لو كنت محاميا فى القاهرة مانصحت أحدا ، لعملت على أن تمتد الخصومة بين كل اثنين وبطريقة مشروعة لأستفيد .. هه ..

كان يتكلم وهويفتش فى أدراج مكتبه واحدا بعد واحد .

ـ لعنة الله عليك .. لك يوم .. (ثم نظر إلى « حمودة » معتذرا عن هذا الخلط قائلا فى أدب) »

ـ آسف ..فإن عبد القوى وكيلى رجل مهمل .. سيقتله الحشيش.

« وقهقه » تعددت الأسباب والموت واحد . نعود للموضوع .. إن المستند الحقيقى وصل يا « حمودة » بيه ..

ـ وصل ؟

ـ لاتقاطعنى ياسيد « حمودة » فأنت تبدو مرهف الأعصاب فى هذه الأيام .. ومن الغريب أنك لاتعرف طبيعة المشاكل ..

رد بجهل :

ـ طبيعة المشاكل .. ماذا تقصد ؟!

فعاد البتانونى يضحك ، كل هذا ولم يرفع إليه عينيه ، لم يلتق بصر الرجلين أبدا ، وعاد إلى الأدراج التى إلى يمينه وفتحها من جديد ، ووجد المسدس حيث هو فأخرجه وأخذ ينظفه ويقول :

ـ لوكنت تعلمت فى الجامعة لعرفت أن لكل نوع من المشاكل طبيعة .. مثل .. الأرض ... هاهاها ... فيه أرض رملية وأرض سمراء وأرض صخرية .

ثم وضع المسدس فى الدرج وأقفل عليه ، ثم فتح الثانى وأخذ يبحث عن شيء معروف ، واستطرد :

ـ وهناك مشاكل يا سيد « حمودة » من طبيعتها أن تكثر المنافقين من حول الشخص لأنهم ينتفعون ببقاء المشكلة ، وعندما تجىء النهاية لاتصيب أحدا منهم بسوء فإنهم حالا يغيرون ملابسهم .. هل فهمت ؟

ـ نعم .

ـ هل تؤمن بالوراثة ياسيد « حمودة » ؟

ـ يعنى ؟

فرد البتانونى ضاحكا :

ـ لا لا لا لست أقصد وراثة الأرض عن الأب أوالجد ، فهذه بينى وبينك لايجب أن نؤمن بها.

ورد وهو يلهث :

ـ لماذا ؟

-لماذا لأن تزويرها سهل ، سهل جدا .. أنا أتكلم عن وراثة أخرى .. وراثة الطباع والخصال والعادات .

فامتقع وجه « حمودة » وهم بأن يقوم ويخرج لكنه شعر أنه مرتبط بهذا الإنسان الكريه ارتباط الإنسان بقدره لايمكن الفرارمنه ولو كان كريها . فرد بغيظ مكظوم :

ـ وماذا كنت تريد أن أرث من طباع والدى يا أستاذ ؟

ـ آه .. السماحة والطيبة والاعتماد على النفس .. والسعى فى الأرض والعرق الحلال .. هيه .. ما رأيك ؟ !

ـ رأيى أنا ؟ .. كل هذا صحيح ..

فاعتدل الأستاذ فى كرسيه بعد أن أقفل كل الأدراج وصوب عينيه على « حمودة » الذى بدا كأنه صيد فى شبكة محكمة الأطراف وقال له :

ـ كان رجلا طيبا رحمه الله ، هل تذكر تاريخ كفاحه ..

ثم نظر إلى الآية والميزان ثم اعتدل يسأل فى لهجة أكثر جدية

وحزما :

ـ وطلبات السيادة !!

فتردد ثم تقلقل فى كرسيه ثم قال :

ـ أنا متأكد أن مسألة السند المزيف إشاعة كاذبة .

ـ متأكد ؟ « وهز يديه فى إهمال وعدم اكتراث » حسن .. ولماذا جئت لى ؟ إنى لم أقبل قضيتك حتى الآن ولا قضية أخيك ، ولا قضية الجناينى . كلها تدور حول الأرض . وأنت تعلم أن معنى قبولى أن أكون وكيلا عن أحد الأطراف الثلاثة .

فرد بخضوع :

ـ أعلم ..

ـ عال .. من الممكن أن تخرج من باب السلامة ، فأنت حين تتصالح مع أخيك لن يجد أعداؤك ورقة يلعبون بها ، وليس هذا هوالغنم الوحيد ، بل هناك غنيمة إيجابية هى أن تصاهر أسرة السبع وأنا كفيل لك بالسعى لديهم .. يمكن أن تثق بى ..

فتهلل وجه « حمودة » بدا عليه أنه قد وصل إلى قرار لكن الأستاذ البتانونى لم يدعه يتمتع بهذا حتى لا يكون صاحب فضل فى الحل السلمى ، فقال : وعندما يتم الاتفاق بينك وبين « رضا » سآخذ عليه تعهدا بالتنازل عن كل حقوقه فى الريع وسنفرض لك جزءا إضافيا من الأرض نظير التقدم الزراعى الذى حدث بفضلك .. يعنى .. لن تكون ضحية ..« وضحك فى لطف » .

هتف « حمودة » بفرح وكأنه اطلق من سجن :

ـ موافق .

فاستطرد البتانونى :

ـ حسن .. إلى اللقاء قريبا ..

***

خرج الأستاذ البتانونى وهو سعيد بهذا النصر فقد أصبحت عزبة « ماضى » من ضمن أملاك المستقبل لأسرة البتانونى الواسعة الأملاك لأن « رضا » لن يمانع فى بيع جزء من أرضه لشقيق البتانونى، وعندئذ تبدأ خطة جديدة .

وكان « رضا » فى هذه الليلة فى بلدة أمه حيث ذهب إليه « حسن » ورسول من البتانونى ليخبراه بالأمر وهو فى غمرة من الأحزان ، ولم يكد يصدق ما سمع ، لكنه حين قابل الأستاذ البتانونى عرف حقيقة الموقف ، وكاد يرفض لولا أنه تذكرأن فى هذا حقنا للدماء، ولو أن معركة جديدة ستبدأ بينه وبين هذا الرجل الغريب ولاشك فى ذلك .

وحدد موعد اللقاء بعد ثلاثة أيام أقامها « رضا » فى القرية . كان يرى ذوائب النخل وأبراج الحمام فى وطنه . تحلق أسراب الحمام فى السماء ، ثم تهفو مع كل مغرب نحو أكنانها وتقطع الليل فى الحب والهديل .

ولم يكن ينسى « ثريا » ، كانت تصاحبه فى غدواته وروحاته

كأنها تخالط كل نسيم .

ولم يبق إلا يوم واحد على الموعد المحدد ، واستيقظ « رضا » فى الهزيع الأول من الليل على من يحمل إليه نبأ مصرع « حمودة » إذ انطلق عليه الرصاص ، من سيارة مجهولة مطفأة الأنوار مرت بسرعة مجنونة على الطريق الذى تقع عليه عزبة « ماضى » ، وكان الوقت مساء ، و « حمودة » عائد من حقول القطن يركب بغلة .

قيل إن أبناء الجناينى هم الذين فعلوا ذلك قبل أن يخلص من مشاكله ويتفرغ لهم ، وشاعت إشاعات أخرى .

لكن الذى يعنى هو أن الأستاذ البتانونى سهر يندب خطته المنهارة ، فقد آلت العزبة إلى الذى شرد عن أرضه أكثر من عشر سنوات ..

***

ومالبث الناس أن نسوا اسم عزبة « ماضى » وأطلقوا عليها اسما جديدا . ولم يعد أحد هناك يشعر بالغربة التى كان يشعر بها من قبل بعد أن ارتد الغريب إلى وطنه . كان فى خنصره خاتم من الياقوت يحمل ذكريات حب لن يغيب عن القلب أبدا ، وحوله وجوه سمراء وهويعبر القنطرة التى تفصل بيوت الفلاحين عن بيت « حمودة » سابقا. وكأن صورة لوجه رجل عجوز كانت تطل من شباك الدار القديمة . صورة أخرى لرجل أسمر ربعة قصيربشارب غزير يسكن القاهرة ، قلبه يخفق بالحب والثأر لنفس الفتاة التى سكنت قلب « رضا » .. كان يمشى معه

جنبا لجنب ..

وكانت الشمس يومئذ قد ارتفعت عن الأفق الشرقي ، والترعة تتدفق نحوالشمال في فيضان عال ، والأشجار على شطها ترمي إلى الماء ببعض الأزهار كلما هزها نسيم ذلك اليوم .

« تمت »

كفر بولين

القاهرة ١٩٦٣

***

الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

(١) لقيطة
(٢) بعد الغروب
(٣) شجرة اللبلاب
(٤) شمس الخريف
(٥) غصن الزيتون
(٦) من أجل ولدي
(٧) سكون العاصفة
(٨) الماضي لا يعود
(٩) ألوان من السعادة
(١٠) أشياء للذكرى
(١١) النافذة الغربية
(١٢) الضفيرة السوداء
(١٣) حافة الجريمة
(١٤) الوشاح الأبيض
(١٥) الجنة العذراء
(١٦) خيوط النور
(١٧) الباحث عن الحقيقة
(١٨) البيت الصامت
(١٩) أسطورة من كتاب الحب
(٢٠) للزمن بقية
(٢١) جوليت فوق سطح القمر
(٢٢) قصة لم تتم
(٢٣) الدموع الخرساء

مؤلفات الأستاذ على أحمد باكثير

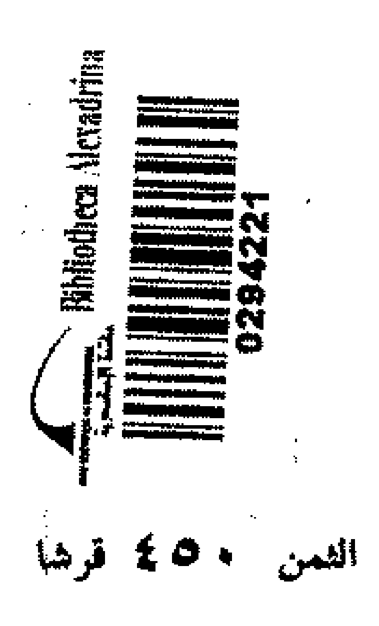
(١) اخناتون ونفرتيتى (٢) سلامة القس (٣) وا إسلاماه
(٤) قصر الهودج (٥) الفرعون الموعود (٦) شيلوك الجديد
(٧) عودة الفردوس (٨) روميو وجولييت (٩) سر الحاكم بأمر الله
(١٠) ليلة النهر (١١) السلسله والغفران (١٢) الثائر الأحمر
(١٣) الدكتور حازم (١٤) أبو دلامة (١٥) مسمار جحا
(١٦) مسرح السياسة (١٧) مأساة أوديب (١٨) سر شهر زاد
(١٩) سيرة شجاع (٢٠) شعب الله المختار (٢١) إمبراطورية فى المزاد
(٢٢) الدنيا فوضى (٢٣) اوزوريس (٢٤) دار ابن لقمان
(٢٥) قطط وفيران (٢٦) إله إسرائيل (٢٧) هاروت وماروت
(٢٨) التوراة الضائعة (٢٩) جلفدان هانم (٣٠) فى ذكرى محمد ﷺ
(٣١) من فوق سبع سموات (٣٢) الشيماء (٣٣) إبراهيم باشا

الملحمة الإسلامية الكبرى « عمر » :

(١) على أسوار دمشق (٢) معركة الجسر (٣) كسرى وقيصر
(٤) أبطال اليرموك (٥) تراب من أرض فارس (٦) رستم
(٧) أبطال القادسية (٨) مقاليد بيت المقدس (٩) صلاة فى الإيوان
(١٠) مكيدة من هرقل (١١) عمر وخالد (١٢) سر المقوقس
(١٣) عام الرمادة (١٤) حديث الهرمزان (١٥) شطا وأرمانوسة
(١٦) الولاة والرعية (١٧) فتح الفتوح (١٨) القوى الأمين
(١٩) غروب الشمس

رقم الايداع ٢٠٢٠
الترقيم الدولى ٦ ــ ٢٠٣ ــ ٢١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٤٥٠ قرشا